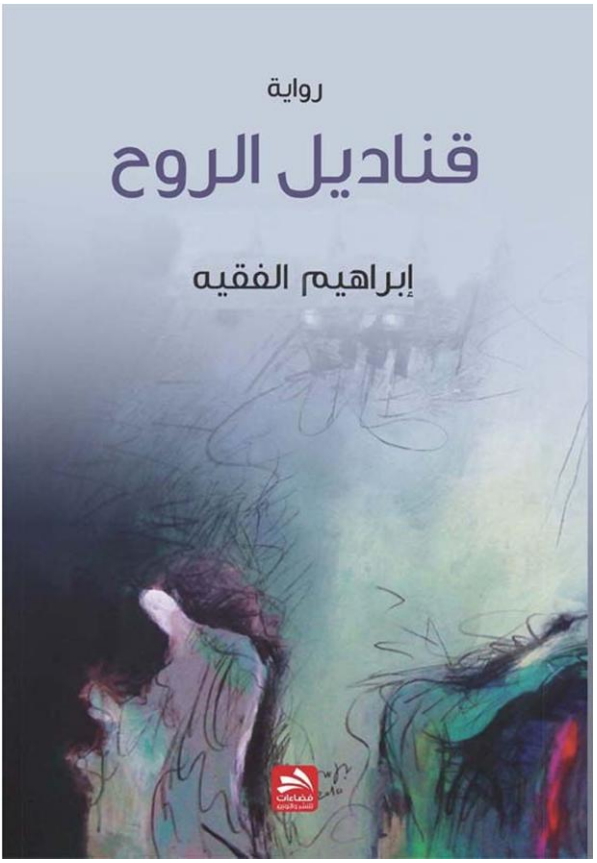

قناديل الروح

813.9
الفقيه، إبراهيم الفقيه
قناديل الروح – إبراهيم ذيب نافع الفقيه – عمان: دار فضاءات، 2013
الواصفات: / القصص العربية// العصر الحديث/.

إبراهيم الفقيه

قناديل الروح

روايــة

فضاءات
للنشر والتوزيع

| إبراهيم الفقيه |

.

قناديل الروح.. عذاب أسرة فلسطينية عانت قهراً وظلماً وحرماناً وتشرداً، إلا أنها دائماً وأبداً تحمل أمل العودة إلى ذاك الوطن الساكن في الوجدان.

***

الإهداء

إلى أنجالي وأحفادي، أجيال المستقبل، الـذين يصرـون عـلى حـق العودة إلى أرض الآباء والأجداد.. لعلهم يتعلمون الدرس من المأسـاة الحالية، ويجعلون الحياة أفضل مما هي عليه.

***

سجّل.. أنا عربي..
سجّل.. برأس الصفحة الأولى
أنا لا أكرهُ الناسَ
ولا أسطو على أحدِ
ولكني.. إذا ما جعتُ
آكل لحم مغتصبي
حذارِ.. حذارِ.. من جوعي، ومن غضبي!!.

من ديوان الشاعر محمود درويش
"أوراق الزيتون"، بطاقة هوية

ذاكرة وطن

أطفأ جلال مصباح غرفته الضيقة، وقف برهة في الظلام قبل أن يشعل المصباح القريب من سريره، كان به قلق من لا يفقه شيئاً عن مدينة كبيرة وصل إليها تواً، في مهمة تكاد تكون مجهولة التفاصيل.. قال في سريرته وهو يتذكر أحاديث كثيرة عن هذه المدينة، نقلها له الأصدقاء المسافرون "إذن هذه هي بغداد، يا لها من محطة".

لم يكن في محطة عابرة، "حدث نفسه"، بل سوف يكون في دوامة عمل "مراسل صحفي" يمكن أن يستغرق كل وقته.. الأحداث متشابكة، وعليه أن يكون في قلب الحدث، عليه أن يغطي الحرب التي لاحت بوادرها في الأفق بين قوات التحالف الدولية والعراق.

قلب دفتر يومياته بين يديه، تساءل إذا كان سينجح في مهمته! وإذا كان يمكن لمدن العالم العربي أن تكون محطات لحياته؟.. اتجه نحو السرير، شعر بارتياح وهو يؤكد لنفسه أن تساؤله ينطوي على تداع "ما دمت أعيش فكيف بي لا أقبل عملي".. بدا مرهقاً، وعيناه مثبتتان بثقل من جراء التحديق في مئات الكيلومترات، أثناء سفره من مقر عمله في لبنان إلى العراق، بينما الرمل والإسفلت يضخان الحرارة ويسخنان

السيارة التي أقلّته، وعشرات الحواجز في الأرض العراقية توقفه، وتدقق في أوراقه.

محاولاً أن يبعث الماضي، ويقرأ بعض ما كتبه، استلقى جلال على السرير.. طلقات بعيدة من رشاش سريع الطلقات قطعت حبل أفكاره، أعادت ذاكرته إلى حرب لبنان وحصار بيروت.. في قرار نفسه أيقن أن أحلامه تقلصت، وأنّه لا يملك سوى قبول مهمته، وهي مهمة الحاضر في مدينة الموت، ومنفى الماضي الذي تقشر عنه كل شيء غير اللطخات المكررة والحلم المفقود.. قفزت الأحداث في ذاكرته من جديد، وتشكلت أشبه بجدار فولاذي، استعاد مناظر العواصم العربية المكشوفة والمقهورة، أحس بالأرقام جافة والتواريخ غائبة، منقوشة على صخور.

جلس يحاور الصمت، إنه فلسطيني يحلم بالعودة إلى وطنه، يناضل من أجل قضيته، وما يدور من أحداث هنا أو هناك له صلة وثيقة بهذه القضية.. وبالرغم من شعوره بقتامة الأيام القادمة على العراق، والمؤامرة التي تحاك حوله.. إلا أنه أحس بانتمائه العربي، وشعر بالدم العربي يغلي في عروقه.. قام، وقف قرب النافذة، شعر بصعوبة مهمته، تأفف، تذكر ماضيه وحاضره، لا فرق بين الماضي والحاضر، "حدث نفسه"، لا فرق بين رام الله وغزة وبيروت وبغداد.. مدن يحاصرها الرصاص، وبنايات يمتطيها القناصون، لا فرق، الموت في كل مكان..

كان في بيروت، وكان الموت يلاحقه.. إنه أقوى من الموت.. إنه فلسطيني منذ فجر التاريخ، ووالدته "جليلة" ما فتئت تحدثه منذ أن كان في الرابعة من عمره عن وطنه، وتقول "إننا عائدون"، حتى صار يحلم بفلسطين كأنها الجنة.. شعر أنه في المكان الخطأ، عليه أن ينهي مهمته ويعود لوطنه، يصرخ في وجه المحتل.. أسبل جفنيه وتراءى له والده "ناجي" وهو يسير بخطوات صلبة في أرضه، صدره يواجه الموت البارد، قبضتاه مشدودتان، اليمنى تعصر جمراً من الصبر، واليسرى تقبض على مفتاح باب بيته الذي يحتفظ به منذ أيام نكبة فلسطين، يسترجع جلال رؤية والده ويتذكر بيته بين صفوف الأبنية الرمادية المجللة بآثار القصف والدمار، يشعر بإيقاع ضربات قلبه المنتظمة العنيفة في صدر حار ورطب، الهواء يعبث بكوفية والده البيضاء، ويده تتسلل لترد أطرافها عن جبهته وعينيه إلى الوراء.

"ستموت أيها الفلسطيني في الشوارع الغريبة قبل أن تجد حلاً لقضيتك"، حدّث جلال نفسه ثانية وجلس على مقعده.. نظر إلى ساعته، عقاربها تشير إلى الثانية والنصف بعد منتصف الليل، أغلق الدفتر وأطفأ النور من فوق رأسه، كاد يسمع دقات قلبه في هدوء الظلمة الحالكة، فجأة سمع صوت انفجارات تهز بغداد، توالت الانفجارات واشتعلت سماء بغداد، لم يتوقف القصف، ونقلت المحطات الإذاعية والفضائيات عبر بث مباشر، صور الطائرات النفاثة

والبوارج الحربية التابعة للقوات المتعددة الجنسيات بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية وهي تطلق صواريخها المدمرة على بغداد، بادعاء وجود أسلحة دمار شامل على أرضه، يهدد مصالح أمريكا وحلفائها من قوات التحالف.. القذائف طالت مراكز الدفاع وتجمعات الجيوش، المطارات والقصور، المعسكرات والجسور والفنادق، لم تفرق بين مدني وعسكري، وبدأت عملية اجتياح بري لأراضي العراق..

لا يدري جلال كيف تمت عملية الغزو بهذه السرعة، انهار الجيش العراقي في أيام معدودة، نُهبت آلاف الأطنان من الذخيرة الحربية من معسكرات الجيش، نهبوا المتحف الوطني وسرقوا محتوياته، وبعد ثلاثة أسابيع، ظهرت دبابات وآليات القوات الغازية في الشوارع وفوق الجسور، سقطت بغداد.. وبين ليلة وضحاها سُرق تاريخ العراق.

تحطم حلم الصمود، قال جلال في سره، وبكى ساعات طوالاً، لم يصدق خبر سقوط بغداد رغم أنه شاهدُ عيان على ذلك، استشهد الكثير من رفاقه الصحفيين، ولا يدري كيف نجا من الموت بأعجوبة، بعد أن قصفت قوات التحالف الفندق الذي يقيم فيه مع رفاقه، شعر أن مهمته انتهت، ولم يعد لوجوده جدوى في بغداد، وفي صباح يوم حزين، جمع أوراقه وملابسه وذكرياته في حقيبة صغيرة، واستقل حافلة قاصداً العاصمة الأردنية عمان.

***

بشعور مضطرب، صعد جلال الحافلة، غاص في مقعده وأغمض عينيه، ساوره شعور قلَق شخص هارب من الموت، عائد إلى الحياة، قلق شخص يعرف أن الخطر قد يكون سابحاً في الهواء الذي يتنفسه، فجأة فتح عينيه، نظر من النافذة الزجاجية، تابعت عيناه الإسفلت المنبسط، الحار، الرتيب، حالماً بعودته إلى ذويه.. من بعيد تراءت له بيوت طينية متناثرة تربض على أطراف الشارع العريض، قرية مهجورة يبدو أنها تعرضت لقصف الطائرات، مجموعة من المنازل محاطة بأسوار حجرية قديمة، مهدمة ومتباعدة، ثمة تلة صغيرة ومقبرة قديمة.. تساءل في قرار نفسه عمن أقام في هذه البيوت، ومن يقيم بتلك القبور.. لم يبق غير الآثار وغبار الزمن والموتى.. سيارات تجتاز حافلته، أطفال يلوحون من فناء دار بعيدة، قطعان ماشية، تلال، أودية، أطياف مبان قديمة تنساب على خلفية الأفق.. غشيت عينيه سعادة الهروب من بلد السيارات المفخخة والانتحاريين، وأشلاء الجثث والموت.. البلاد العربية خلايا نائمة وقنابل موقوتة، الاضطرابات والقلق تعم الشعوب العربية وهي مكممة الأفواه، تبحث عن لقمة العيش، ولقمة العيش في خزائن وحسابات الرؤساء والحكام العرب في أوروبا وأمريكا.. أقفال فوق أقفال بأرقام سرية وأسماء مستعارة.. هذا ما حدّث به نفسه وجال بخاطره وهو يغوص في مقعده، ويسترجع طفولته في وطنه.

***

كشريط سينمائي تراءى له ماضيه في الأرض الكنعانية، استجمع ذاكرته وهو يتكئ برأسه على النافذة الزجاجية للحافلة، اقتربت الأحداث وابتعدت داخل الذاكرة التي استيقظت فجأة، استوقف صوراً راحت تحفر ذاكرته، تمخر رأسه وتنساب أمام ناظريه.. شاهد نفسه وهو في الخامسة من عمره عندما هبّ ذات صباح من نومه مذعوراً، والدته تصرخ، وجنود غرباء عن محيطه العربي يتحدثون بلغة غريبة، يعبثون بأغراض البيت، يقيدون يدي والده بأصفاد حديدية، يصرخ جلال، ويتشبث بثياب أبيه، لم يرحم الجنود طفولته، ليلتها اجتاحوا مخيم قلنديا بحثاً عن رجال المقاومة، بثوا الرعب بين أهله، وعند الفجر اعتقلوا والده ناجي وبعض الرجال بتهمة مقاومة الاحتلال.

أياماً عدة، ظل جلال يصرخ ويسترجع منظر الجنود وهم يقتادون والده خارج البيت، اقتحام الجنود للبيت كان المزقة الأولى في مسيرة حياته، ومع كل صباح كان يفتح عينيه ويأمل رؤية والده وعودته إلى البيت ثانية، لكنه لا يرى غير جبال تُحيط بالمخيم، وشتلة زيتون صغيرة غرسها والده قبل أكثر من عام، على بعد مائتي متر من البيت، قال إنها شجرة صمود وصبر وأمل وكفاح.

على أطراف أصابعه، تسلل جلال من فراشه ذات مساء، حاول الخروج من البيت، شاهد والدته جليلة جالسة على العتبة، التفتت إليه وشدته كي يجلس قربها، كان السكون يسود جنبات المخيم، ولم يكن هناك منزل واحد تشتعل فيه الأنوار.. ومع أن الكهرباء كانت مقطوعة، إلا أنه استطاع على ضوء القمر رؤية شجرة الزيتون الصغيرة، ولم يعد يهتم إلى أين يذهب بعدما بدا له أن المخيم كلَّه خالٍ من أي ركن آمن في الليل.

لم ينم تلك الليلة، ظل جالساً قرب والدته، وهي تحدثه عن والده، وعن طول غيابه، وعن المخيم الذي أقيم على عجل في الجهة الشمالية من مدينة القدس بعد النكبة بعام واحد، يتوسط الطريق الرئيس بين مدينتي القدس ورام الله، ويعيش فيه اللاجئون الذين شُردوا من أرضهم، بعد احتلال قراهم الواقعة في ضواحي القدس الغربية.. كان جلال صغيراً، ومع ذلك ما زالت بيوت المخيم تتراءى له وتعبر ذاكرته كحلم، أما البيت المكوّن من غرفتين وحمام خارجي، ويقع في الجهة الشرقية من المخيم، حيث كان يقيم فيه مع والديه وجده وشقيقته "نبيلة" التي تصغره بعامين، فما زال مطبوعاً في ذاكرته كوشم.

مع شروق الشمس، غادر البيت ومشى على غير هدى، ثمة جموع من المشاة على الطريق في الصباح، فلاحون يحملون معاولهم يُبكّرون إلى الحقول والمزارع مع عائلاتهم، نساء يحملن على رؤوسهن أطباقاً من

القش، يتوجهن للسوق، يبعن بيضاً، دجاجاً، خبيزة، عكوب، فجل، بصل، بقدونس ونعناع وأشياء أخرى.. عربات تسير ببطء، وأخرى تظهر وتختفي ثانية.. شعر بالتعب والنعاس يدب في أوصاله، في حقل قريب شرق المخيم وجد جلال نفسه، تمدد فوق أديم الأرض الأحمر الدافئ، أخذ يرقب المزارعين وهم يحرثون الأرض، ويمهدونها لزراعة بذور القثاء والكوسا والمحصولات الصيفية، وما بين فينة وأخرى يتأمل سلاسل الحجارة المكدسة التي تؤلف جدراناً طولية لا تنتهي على سفوح التلال، تتصالب وتتماهى مع مناظر الريف، يتساءل في قرار نفسه عن مصدر هذه الحجارة التي تنبثق من باطن الأرض على الدوام في صراع مع الطبيعة، فعلى الرغم من أن هذه الأراضي قد حُرثت لقرون خلت، فإن ثمة حجارة تكسر نصل المحراث، تشوه حوافر الأحصنة، وتقرّح يد الفلاح.. تنبثق من باطن الأرض من جديد، وينبغي انتزاعها.

على صوت شقيقته نبيلة، صحا جلال من قيلولته بعد الظهيرة، شاهدها تطارد فراشات الحقول مع ابنة الجيران "ياسمين"، جلس ثلاثتهم وعبير الأعشاب البرية يطارد أنفاسهم، يرقبون الفلاحين وهم يتناولون وجبة الغداء أثناء استراحتهم.. تربع الرجال على الأرض، تناولوا طعامهم المكون من الزيت والزيتون والزعتر المطحون، انشغل أحدهم في جمع عيدان من الحطب، أشعل النار بين ثلاثة أحجار صنعها

كموقد، وضع إبريق الشاي عليه، انشغلت أصابع الآخرين في لف السجائر، وضع أحدهم ورقة "أوتومان" على راحته وفيها القليل من دخان "الهيشي"، وبين السبابة والإبهام لف الورقة على نفسها بحرص شديد، حتى لا يسقط منها شيء، وضعها بين شفتيه، ألصق نهايتها بطرف لسانه، تناول عوداً من عيدان النار وأشعل الطرف الآخر، سحب أنفاساً متقطعة، تصاعد الدخان، نفثه من فيه ومنخريه، ثم نظر إلى الحقل المحروث وقال "الوطن سيادة وحرية واكتمال".. تناول أحدهم إبريق الشاي الأسود عن النار، ملأ الكاسات، وقال "لا حرية للمواطن في غياب حرية الوطن"، فرد آخر "السنة سنة خير إن شاء الله، صلّوا على النبي"، وردد الجميع "اللهم صلّ على سيدنا محمد".

***

بعد عصر ذلك اليوم، وبينما كان جلال عائداً إلى بيته، شاهد سيارة عسكرية تتقدم نحو المخيم، نظر من خلف الجدار، فرأى ثلاثة جنود غرباء يترجلون من المركبة، ويتجهون نحو البيت، سرت قشعريرة في جسده، وأدرك أنهم قادمون لأمر ما.. خمّن أنهم سيقبضون على جده، كما قبضوا على والده قبل أشهر عدة.. ظهر جده قرب الباب، شاهد جلال أحد الجنود يسلمه ورقة، وسمعه يقول بأن هناك أمراً بهدم البيت، وعلى ساكنيه إخلاءه خلال أربع وعشرين ساعة.

مثل الكابوس سقطت الكلمات على مسامع جلال "إذاً سيهدمون البيت"، حدث نفسه وخفض رأسه لئلا ينكشف أمره، والجنود يصعدون سيارة الجيب العسكرية، هرع إلى البيت وأخذ يصرخ "ماما ماما"، نهضت والدته مذعورة، أضاف "سيهدمون البيت، سمعت الجنود يقولون بأنهم سيهدمون بيتنا خلال أربع وعشرين ساعة".. صرخت والدته "فأل الله ولا فألك"..

- رأيتهم يسلمون ورقة لجدي ويأمرونه بإخلاء البيت. قال جلال.

أسرعت جليلة إلى جده، كان جالساً قرب عتبة الباب، يتوكأ على عصا ضمها بين يديه، وأسند عليها رأسه، ظهرت الورقة من بين يديه.. ظلال صفراء ثقيلة غشيت عينيها، لم تتفوه بكلمة، وأدركت أنها على مفترق طرق، وأن قرار الهدم صدر وانتهى الأمر.

***

تنفيذاً لقرار الهدم، جاء الجنود قبل أن يعلن المؤذن بزوغ فجر اليوم التالي، استيقظت جليلة على الضربات بالأيدي والأقدام وأعقاب البنادق على الباب، ركض جلال واعتلى سقف البيت، ركضت شقيقته نبيلة من ركن إلى آخر من أركان البيت، لعلها تجد مكاناً تختبئ فيه، وقال جده "الله يستر وقعت الواقعة".

مثل السوار أحاط الجنود بالمنزل، هرول الأهالي والجيران لاستطلاع الأمر، راحوا يرقبون الجنود والجرافة تتقدمهم إلى أن وصلوا حافة الباب، مكبرات الصوت تزعق وتطلب منهم مغادرة المكان، أسرعت جليلة إلى فتح الباب كيلا يكسروه، الباب مصنوع من خشب سميك، منقوش عليه بالحفر البارز زخارف تتشكل منها سنابل قمح وشعير، هبط جلال عن سطح البيت ووقف قرب والدته، دخل الجنود البيت مثل الثيران الهائجة، اقتحموا البيت وانتشروا في أرجائه، تصدى لهم جده بعكازه، ضربوه على وجهه وصدره، وألقوه على الأرض، تأوه ولم يعد قادراً على الوقوف.. صاحت فيهم جليلة، واشتبكت معهم، ضغطت بأصابع يدها على عنق أحدهم، ودفعته بعيداً عن العجوز، أبعدها الجندي بركلة من قدمه في بطنها، فوقعت على الأرض وكادت تفقد وعيها.

طلب الجنود من أفراد العائلة الخروج من البيت.. صُعقت جليلة وجلست على عتبة المنزل، تربعت واحتضنت ابنتها، ركع جلال قربها يذرف الدموع.. راودتها نفسها أن تحتضنه وتمسّد شعره وتلامسه، لكنها اكتفت بالتحديق إليه، كأنما تحاول أن تخط ملامحه في ذاكرتها، وهمست في أذنه، "أريد أن تكون شجاعاً مثل والدك، لا تخف منهم، أنت رجل البيت الآن".. جذبته إلى صدرها، وبراحتيها مسحت دموعه، أحست

رأسه يهتز على صدرها، لكنه فجأة وقف وقال "أنا معك يا أمي، لن أغادر البيت حتى لو هدموه فوق رؤوسنا".

انقض الجنود عليهم فجأة، حملوا العجوز وألقوا به خارج البيت، بينما راح آخرون يجرون جليلة مع ابنها وابنتها ويسحلونهم بعيداً عنه، وجليلة تتشبث بأظافرها في أرضية البيت وتصرخ.. وما هي إلا دقائق حتى انهار المنزل وصار ركاماً فوق ركام.

على مقربة من حجارة البيت المتناثرة، وأثاث البيت مدفون تحت الركام، أحست جليلة وهي تقف في العراء بأن العالم ينهار، صرخت بأعلى صوتها "حسبي الله ونعم الوكيل، الله على الظالم"، بينما قال جلال وهو يمسح دموعه "سأكون شجاعاً يا أمي".

تلك الليلة، كانت القشة التي قصمت ظهر جلال، شعر منذ صغره، أنه رجل يملك مهمة، قضية تتعلق باحتلال الأرض والحرية والوطن، مثلما هي متعلقة بتعب الأيام وفقدان الأمن.. وفي خيمة نُصبت على عجل قرب شجرة الزيتون الصغيرة، ببقايا أشلاء مهزومة، نامت جليلة تلك الليلة تتوسد جلالاً وتحتضن ابنتها نبيلة، ولم تمض عدة أيام حتى قام أقارب ناجي ببناء بيت متواضع لأسرته، استصلحوا طوباً من البيت المهدم، وتعاونوا في بناء الجدران، ثم سقفوه بألواح من الصفيح، ومع أن جليلة صغيرة الحجم وضعيفة، إلا أنها كانت تحمل

الطوب على رأسها، وحينما تعتقد أن لا أحد يراها، تجلس لحظة خلف الجدار وتتنهد، ودمعها ينهمر على وجهها.

ورغم أن جليلة وقفت موقف الرجال تلك الفترة، إلا أنها شعرت بحاجة إلى الرجل، ولم يكن هناك غير والد زوجها العجوز، الذي لم يعد قادراً على مساعدتها بعد اعتقاله لأكثر من عشرين يوماً، للضغط على ولده ناجي حتى يعترف بالتّهم التي وجهت إليه، وقبل أن يفرجوا عنه أصيب بالتهاب رئوي حاد أقعده عن العمل.. ومع أن وحيدها جلالاً ما زال صغيراً على تحمل المسؤولية أثناء غياب أبيه، إلا أن المسؤوليات العائلية الجديدة، التي ألقيت على عاتقه، منحته نضجاً وافراً، فأخذ يعمل مع والدته في الحقول، وفي قطاف ثمار الزيتون بأجرة ضئيلة، لا تكاد تكفي لسد رمق الأسرة، ولم يلبث أن صار مضرب الأمثال عند جيرانه في المخيم، مما دفعه للتفكير بغير وعي في إقامة نصب لوالده، بعد أن أقامه لمدة طويلة في ذاكرته.

***

لم تشعر جليلة بصدمة أعنف من صدمة اعتقال زوجها، سبق وأن مرت في صدمات سابقة تحت حماية ناجي، توفر لها أمناً بقدر ما توفر أملاً.. أما وزوجها قابع في السجن، فما أشده من فراغ يحيط بها وهي تبحث عنه في المعتقلات والسجون.. وأينما قيل لها عن مكانه أسرعت

لزيارته أو بحثت عنه.. ولن تنسى شعورها، حينما قيل لها إنه في سجون الشمال فلم تجده هناك، لأنهم نقلوه إلى سجن في الجنوب لاستكمال التحقيق معه.. وحتى مدة طويلة ظلت جليلة هذه المرأة الفلاحة المجالدة، ذات الثمانية والعشرين عاماً، التي لم تحد قيد أنملة عن العادات والتقاليد التي كوّنت عالمها، ظلت تواجه عذاباتها بتصميم أشد حتى وجدته في سجن عسقلان.

بعد صدور الحكم عليه، وفي زيارتها الأولى له، فاجأها من وراء القضبان بما لم تتوقع منه "يا جليلة أنتِ الآن سيدة نفسك، وأنا المحكوم بالمؤبد أظلمك، حرام أن ترتبطي بسجين وتضيّعي مستقبلك، أنتِ حرة يا جليلة منذ هذه اللحظة".

ذُهلت جليلة، اغرورقت عيناها بالدموع، وسألته "ماذا تقول يا ناجي! هل تعرض عليّ الطلاق؟".. صرخت وأضافت على مسامع الزائرين "اسمعوا ما يقوله لي زوجي، يريد أن يسرّحني لأكون حرة أثناء سجنه، وهل تحلو الحياة مع غيره! هذا الذي شقي وضحى من أجلي، يجيء اليوم ليمتحن وفائي.. اسألوه لو كنت أنا السجينة هل يتخلى عني؟.. لا، لن يكون هذا ما دمت على قيد الحياة، ثم ماذا سيقول ولداي عني، يصفان أمهما بعد أن يكبرا بالخيانة لأبيهما وللوطن!.. لا يا ناجي، أنت مخطئ بتفكيرك هذا، لست أنا ممن تتخلى عن مسؤولياتها، وسأظل إلى جانبك في الشدة كما في الرخاء، في الأسر كما في الحرية..

لكن أخبرني، ماذا تريد أن أفعل من أجلك أثناء غيابك عن البيت؟".. فنظر إليها وهو يكابد دموعه وقال "لا شيء يا جليلة، الحكم صدر وانتهى الأمر، وإذا كانت هذه إرادتك وهذا قرارك، فامكثي في بيتك مع أولادك، أنا واثق من صلابتك ومن وفائك".. وأطاعته وهي تدري تماماً أنها لا قبل لها لمنع ابنها من الخروج مع أقرانه والوقوف معهم في وجوه جنود الاحتلال.. كما تدري أنها مسؤولة عن تربية ابنتها وتلبية حاجاتها من ثياب وطعام، الحفاظ على وحدة العائلة، والعمل في الحقول بأجرة يومية، أو بيع ما تلتقطه من حشائش وبقوليات الأرض مثل الخبيزة والهندباء والعكوب في أسواق القدس.. بعد أن اجتث جنود الاحتلال حقولاً كاملة من أشجار الزيتون، وغرسوا بدلاً منها حقول ألغام.

وفي زيارتها الأخيرة لزوجها، وقد علم ما فعله الجنود في بيته، لوّح بقبضته في الهواء وصرخ بأعلى صوته، وطلب من جليلة أن تثبت في الأرض، ولا تغادرها أبداً، حتى لو أقامت في خيمة مع والده وأبنائه، المهم ألا تغادر الأرض، ولا تتكرر مأساة الشعب كما حدث عام النكبة.. فهدف المحتل "كما قال" هو إفراغ الأرض من أهلها، وعلى الفلسطينيين أن يصمدوا في أرضهم ويقاوموا المحتل، حتى تتغير الأحوال، ويزيحون عن كاهلهم كابوس الاحتلال.

***

ترنحت الحافلة وأبطأت من سيرها، توقفت على جانب الشارع وقطعت حبل أفكار جلال، عنقه يؤلمه والعرق يتفصد من جبينه، وثمة ذبابة تحوم أمام عينيه.. تأفف، هبّ بعض الركاب من مقاعدهم مذعورين، ثمة حاجز وجنود وسط الشارع، ترجّل السائق حاملاً أوراقه ووقف مع أحدهم، صعد أحد الجنود يحمل بندقيته سريعة الطلقات على كتفه إلى باطن الحافلة، تأمل وجوه الركاب وطلب منهم إبراز أوراقهم الثبوتية، دقق في جوازات السفر، لم يتفوه أحد الركاب بكلمة، مرت الدقائق بطيئة وثقيلة، ترجل الجندي من الحافلة وصعد إليها السائق، هدر المحرك ثانية، تعالى صوت مطرب عراقي بموال حزين من مذياع الحافلة، عكست مرآة السائق وجوه الركاب في نظرته الخاطفة، وانطلق بحافلته يسابق عقارب الساعة باتجاه الغرب.

من جديد، عاد الماضي وتربع في ذاكرة جلال.. حرب الأيام الستة من حزيران في القرن الماضي كانت بداية المنفى والشقاء، "حدّث نفسه"، وراح من خلال ما علق بذاكرته يستعيد ما روته والدته عن تلك الأيام.. (كان الفلسطينيون والعرب يحلمون باستعادة الجزء المسلوب من الوطن قبل حرب حزيران، الحكومات ملأت شعوبها بالآمال والنصر، العودة إلى يافا وحيفا والتنزه على شاطئ البحر، هدم بعض اللاجئين خيامهم، بعضهم الآخر شدّ حقائبه وحمل أمتعته

استعداداً للعودة، صوّبوا عيونهم نحو الغرب واستعدوا للعودة.. واثقة من النصر، خرجت الجيوش العربية من ثكناتها لقتال جنود الاحتلال، كأنها في نزهة، لكن الجيوش لم تجد من تقاتله، قصفت طائرات الاحتلال كل الطرق والجسور، دمّرت طائرات ومطارات الدول العربية قبل أن تصل الجيوش العربية حدود فلسطين، انهارت القوات العربية كما تنهار كثبان الرمل.. الجيش الوحيد الذي استبسل في الدفاع عن القدس هو الجيش الأردني، احتلت كتيبة المشاة الأردنية جبل المكبر، ولم تنجح قوات الاحتلال في استرداد الجبل إلا بعد الهجوم الرابع، بقوة تفوق عدد القوة الأردنية عشر مرات، ولم تسقط القدس إلا بعد أن دار القتال بشكل غير متكافئ من شارع إلى شارع بالسلاح الأبيض وسط المدينة، استشهد الكثير من أفراد وحدات الجيش الأردني الدفاعية قبل أن يتوقف القتال وينسحب، جيوش مصر حوصرت في صحراء سيناء وأبيد الآلاف منها.. جيش سوريا خسر الجولان وتراجع للدفاع عن دمشق.. الهزيمة كانت أكبر من الجميع، أكبر من نكبة فلسطين عام ٤٨، خسر العرب القدس والضفة الغربية وسيناء والجولان.. ولا يعرف أحد حتى هذا الوقت كيف حوّل العرب هزيمتهم إلى انتصار، قالوا "إنها نكسة، والحرب كر وفر، خسرنا المعركة، لكننا لم نخسر الحرب".. ضاعت الأماني والوعود، ضاعت البلاد وتشتت العباد.. واستبدل العرب بكلمة "لاجئون"، كلمة

"عائدون".. تبدل الاسم فقط، ولم يتبدل من أمرهم شيء.. وسارت الجموع هائمة للمرة الثانية على وجوهها نحو الشرق).

تحت ضغط العدو وقصفه، بدأت الناس ترحل، قوافل راجلة من أبناء الضفة الغربية بدأت تتحرك باتجاه النهر، ولم يبق أمام جليلة غير الرحيل، رحل والد زوجها في غيبوبة أبدية وهو ينظر إلى شجرة الزيتون التي غرسها ولده ناجي، وافته المنية قبل الرحيل، أسرع الأقارب وحفروا قبراً قرب الشجرة، وخلال الحفر وجدوا صندوقاً مليئاً بالبنادق، قالت جليلة إنه الكنز الذي خبأه ناجي تحت الأرض قبل اعتقاله، استبدلوا به جثة العجوز وواروا جثمانه على عجل، لتصبح شجرة الزيتون بيته وعنوان صموده.. بعد الدفن، حمل الأقارب الأسلحة مع أمتعتهم الخفيفة وتناثروا بين الحقول، مختفين عن الأنظار.. نظرت جليلة إلى جلال وإلى شقيقته بفزع، حملت إبريق الماء وبعض الخبز والأدوية وقالت امشوا إلى عمان.

***

بعد الغروب، وصلت جليلة مع نساء أخريات مع أطفالهن إلى حافة النهر الذي يفصل الضفة الغربية عن الضفة الشرقية، قالت إحدى النساء بتذمر "لا أستطيع متابعة المشي، فقدماي ممزقتان".. تقدمت جليلة نحوها، أخرجت من جيبها صبغة يود وبعض الأربطة وعالجت

قدمي المرأة، ثم همست لها "قومي احملي ابنتك وامشي، وإلا مت هنا وحدك".. وراقب جلال المرأة وهي تمسك يد ابنتها ياسمين وتحاول اجتياز النهر، بينما راح يرتجف ويتكئ على يديه لفرط إرهاقه، ضاع حذاؤه، جُرحت قدماه من الشوك والحجارة، ومع ذلك صر أسنانه وصمت، وكان ذلك جزءاً من امتحان الشجاعة الذي فرضه على نفسه بعد وصية أمه.

وعلى الرغم من انخفاض ماء النهر الذي لا يتجاوز الخصر، إلا أن التيار كان جارفاً، فطلبت جليلة من كل امرأة أن تمسك طفلاً بيدها، كما طلبت منهن أن تمسك كل واحدة يد الأخرى، بينما حملت ابنتها نبيلة على ظهرها، وأمسكت بيد ولدها جلال وسارت في الطليعة.. وحين أفلت جلال من يدها وسقط في الماء، أسرعت في أثره، وجرته نحو حافة النهر مع ياسمين، التي أفلتت من يد أمها أيضاً، ثم صعدوا جميعاً من الماء وقد هدّهم الإعياء، ليجدوا أنفسهم في العراء، يرتجفون من برودة الماء، بين آلاف المشردين الذين يبحثون عن مأوى لهم، يريحون فيه أبدانهم بعد تعب ذلك اليوم.

عند الفجر، تقدمت جليلة مع مجموعة من النازحين نحو طريق فرعي لا يعرفون إلى أين يقودهم، فجأة ظهر أحد الجنود من خلف تلة صغيرة وقال "ابتعدوا عن الأسلاك الشائكة واسلكوا الطريق الجانبي،

لتصبحوا في منجى من الألغام"، وأشار لهم نحو الطريق الذي يجب أن يسلكوه.

من وراء غيمة بيضاء بعيدة، ظهرت الشمس صباح ذلك اليوم، وتسللت أشعتها إلى أجساد المهجّرين تبث الدفء فيها، كانوا مغبري الوجوه، ملوثي الثياب، يقطر العرق من جباههم، ويتجلى الإعياء في وجوههم.. بدت السماء صافية اللون، بل حتى ضاربة إلى البياض، كشأنها في أيام صيف حزيران، تلوح كما لو أنها مكونة من لا شيء، تبقى دائماً هي هي، في حين يتغير كل شيء على وجه الأرض المادية.. ومن الوادي ارتفعت غمامة كالبخور حاملة معها شذى الثمار البرية، وطيب رائحة الأشجار، وقيل للنازحين أن بعض أفراد الجيش الأردني سيرافقونهم إلى مكان قريب، حيث تبدأ الطريق المعبدة، ثم يُنقلون في شاحنات عسكرية إلى أماكن مخصصة لهم.. عند ذلك أدرك النازحون مصيبتهم، وإنهم أصبحوا مشردين للمرة الثانية، بعد هجرتهم الأولى عام النكبة، قبل تسعة عشر عاماً، لكن صوت جليلة طغى على سكونهم حين ارتفع في الهواء، انتابتها فجأة أسئلة غريبة تحت هذيان مخلفات الهزيمة القاسية، تمنت لو تصرخ بأعلى صوتها، ولا تدري إلى اليوم إن كانت فعلت ذلك أم لا، لكنها تذكر تماماً أنها أخذت تنشد أغنية عن الوطن، حفظتها عن ظهر قلب منذ طفولتها.

على وقع الأغنية، أخذ الأولاد يضحكون ويشبكون الأيدي، وهم يسيرون، وما لبثوا أن اشتركوا جميعاً في الغناء، فجأة صرخت إحدى النسوة "كفوا عن النشيد والغناء، فهذا لا يجوز بعد أن خسرنا الوطن والبيوت والرجال، ولا ندري ماذا سيحل بنا بعد اليوم!"، وأخذت تتذمر وتتمنى الموت قائلة "يا رب لِمَ لم أمت في فلسطين، لِمَ بقيت حية حتى أرى هذا العذاب؟".. ولدى سماع جلال كلمات المرأة استدار ونظر إليها، إلا أن حشد النازحين حجب مدى رؤيته، رأى سلسلة من الجبال الشاهقة تمتد غرباً، كأنما عالمه انقلب، فقد اعتاد أن يقف فوق تلة قريبة من بيت الصفيح الذي أقامه أقارب والده لهم قرب شجرة الزيتون، وينظر إلى الأودية تحته والتلال تحيط به.. لكنه الآن يمشي في هوة وسط حافتين من الجبال، خُيّل إليه أنها على وشك طمره، فقد جمدت كلمات المرأة أوصاله، وأدرك للمرة الأولى مدى عذاب والدته وصمودها في وجه المأساة التي ألمت بها، وأنها تحمل أعباء ثقيلة لا قِبَل لها عليها وحدها، وانفجر من عينيه الدمع الذي حبسه طويلاً منذ هدم الجنود بيته، وفارق وطنه.

***

بذاكرة لا حدود لها، ما زال جلال يذكر كيف خرجوا عن طريق جبليٍّ إلى جسر الملك حسين مشياً على الأقدام، المناظر على جانبي الشارع كانت مروّعة، قتلى وسيارات محروقة، جثث الجنود تتناثر قرب الجسر بعد أن قصفتهم الطائرات، وسائق يترجل من سيارته على عجل، يختبئ في جرف قريب، تنفجر السيارة بعد لحظات، تتحول إلى شعلة من النيران، تنتشر النار في كل مكان، تزحف إلى حيث كان السائق مختبئاً، الركاب يتحولون إلى كومة من الشحم داخل السيارة، يصرخ جلال، تحتضنه والدته وتغطي ناظريه براحتيها، يرتسم منظر الحريق في مخيلته، ولسنوات طويلة يظل المنظر موشوماً في ذاكرته، قبل أن يدرك أن قنابل النابالم تحرق وتدمر البشر والحجر.

الطريق إلى الجسر مكتظ بالسيارات والناس والبهائم، كلها تتحرك باتجاه الشرق، و"جسر الأحزان" كما أطلقوا عليه في ذلك الوقت، الشاهد على الهزيمة، صراخ الأطفال المفقودين يصم الآذان، ويجرح النفوس، "ماما وبابا"، وجليلة تهرول بين الحشود تبحث عن ابنتها نبيلة، تنقل نظراتها بين النهر وبين أقدام المشاة، تستطلع وتتحجر الدموع في عينيها، تجدها واقفة قرب رجل عجوز، تصرخ وتبحث عن نقطة ماء من شدة العطش.. تخر عند قدميها، تحتضنها وتسرع إلى الجسر المهدم، تجتاز ألواح الخشب الموضوعة فوقه بأقدام مرتعشة، الجسر العائم فوق النهر لا يشبه، بحال من الأحوال، ما تعنيه هذه الكلمة، فقد

ضربت بعض الركائز الحديدية في عدة مواضع على عرض الجسر، وألقيت بعض الصفائح الخشبية عليها، لتصل بين ضفتيه، ولم تكن ثمة ركائز يدوية يستند عليها عابرو الجسر.

الماء في أسفل الجسر يجيش عند الركائز، والناس تسير في حذر، على يمين الجسر كان هناك حفرة عميقة، تتحرك على سطحها ببطء دوارات ماء صغيرة، فجأة فقدت إحدى النساء توازنها، أرسلت صرخة مشحونة بالذعر ووقعت في النهر، رمى أحدهم نفسه خلفها من فوق الجسر، سحبها نحو الشاطئ، كان جسدها شاحباً تمام الشحوب، وندبة زرقاء على كتفها، أخذ يجري لها تنفساً اصطناعياً وهي بلا حراك، أفاقت من غيبوبتها بعد لحظات، بدت مذعورة والمياه تبلل ثيابها، اندفع بعض النازحين إلى النهر بثيابهم الخفيفة، وبما يحملون من متاع، يحتضنون أطفالهم مثل القطط التي تنقل صغارها بأسنانها من مكان الخطر، إلى أن استقر بهم المقام في مخيم قرب بلدة الكرامة.

لم تمكث جليلة طويلاً في مخيم الكرامة، فبعد تكرر القصف اليومي من مدفعية جيش الاحتلال، انتقلت إلى مخيم البقعة، مخيم البقعة كان صغيراً وطرقاته ترابية، تحيط به الأراضي الزراعية، قالوا إنه مخيم طوارئ حتى تحل مشكلة النازحين، كانت الناس في المخيم تغني "عائدون".. وزعوا على كل عائلة خيمة وبطانيات وبقجة ملابس، في

الصيف كان الجو حاراً، وفي الشتاء الطين حتى الركب، والثلج يُسقط الخيام وبيوت الصفيح فوق الرؤوس.

***

أشهر قليلة مرت، انبثقت خلالها المنظمات الفدائية من باطن الأرض، هبّ شباب المخيم وتدربوا على السلاح.. قالوا "بلشت الثورة"، وغنوا للمقاتلين، أعادت الثورة "للعائدين" أرواحهم، تواصلت العمليات الفدائية ضد المحتل في الأراضي الفلسطينية المحتلة، وعززت "معركة الكرامة" آمالهم بالصمود والعودة إلى فلسطين بعد اليأس، كما قالت جليلة لولدها جلال ذات مساء، وأضافت بأن معركة الكرامة أعادت الكرامة للأمة العربية، امتزج فيها الدم الأردني بالدم الفلسطيني، وقف المقاتلون مع الجيش الأردني في خندق واحد، يصدون هجوم القوات الغازية جنباً إلى جنب، عبرت الدبابات النهر فجراً من عدة محاور تحت غطاء جوي كثيف، لاحتلال الضفة الشرقية لنهر الأردن والقضاء على الفدائيين، تصدى لهم الجيش العربي الأردني على طول جبهة القتال من أقصى شمال الأردن إلى جنوب البحر الميت بقوة، وفي بلدة الكرامة اشتبكت القوات الأردنية بالاشتراك مع الفدائيين في قتال شرس بالسلاح الأبيض ضد جيش العدو، الأمر الذي اضطره إلى طلب وقف القتال والانسحاب الكامل

من أرض المعركة عند المساء، تاركاً وراءه ولأول مرة خسائره وقتلاه دون أن يتمكن من سحبها معه.. يوم الكرامة كان مشهوداً، استبسل فيه المقاتلون، وتفانى فيه الجيش الأردني، دمّروا معظم الدبابات التي تجرأت واجتازت النهر، وكانت المرة الأولى التي يُقهر فيها جيش الاحتلال.

احتفل الشعب الأردني كما احتفل الفلسطينيون بالنصر للمرة الأولى، وردد اللاجئون بأن العودة قاب قوسين أو أدنى، بعضهم أشعل النار في خيمته، وبعضهم الآخر رمى بطاقة التموين التي صرفتها وكالة الغوث لهم.. وأضافت جليلة لولدها تلك الليلة "جدك كان صاحياً، ما باع ولا شبر من أرضه، فلسطين أرضنا، أرض أجدادنا وأولادنا وأحفادنا، لن ننساها ولن نتخلى عنها".. لكن يبدو أن وكالة الغوث كانت تعرف أكثر من اللاجئين ومما كانت تعرفه جليلة، فمدت المخيم بالماء والكهرباء، وسمحت لهم ببناء "البراكيات" والبيوت الطينية بدل الخيام.. وطلبت منهم الانتظار حتى تحل قضيتهم.

ومع أن جلالاً لم يكمل السابعة من عمره أثناء حرب حزيران، إلا أن والدته رسخت الأحداث في ذاكرته، حتى صار يحفظها عن ظهر قلب، فوالدته كانت تنتهز الفرص وتحدثه عن الوطن في كل المناسبات، تعرج في الحديث إلى عام النكبة وحرب حزيران، ولا تنسى أن تقص عليه قصة والده ناجي قبل أن يقترن بها.. يستعيد جلال ما روته والدته

عن تلك الأيام ويتذكر ما قالته بأن حزيران العرب لم يكن نكسة، كان هزيمة بمعنى الكلمة، أشبه بالسقوط من جبل شاهق، أما حزيران بالنسبة للفلسطينيين فكان تجربة وواقعاً من خلال كبوة، قرؤوا الماضي ورفضوا الهزيمة، اندفعوا إلى المستقبل.. تعلموا من خلاله أن يعتمدوا على أنفسهم أولاً قبل كل شيء لتحرير وطنهم.. كطائر الفينيق الكنعاني نفضوا عن أنفسهم غبار التخدير وحسموا أمرهم، ونجحت المنظمات الفدائية في أن تُخرج قضيتهم الفلسطينية من ركودها الزمني، وتضعها بين أيدي الفلسطينيين أنفسهم.. أما حرب ال ٤٨ فقد شردت الفلسطينيين وأجبرتهم على الخروج من ديارهم، كانت نكبة حقيقية، قسمت فلسطين إلى قسمين.. تلك الأيام كان ناجي في السابعة عشرة من عمره، "أضافت جليلة"، ولم يكن قد اقترن بها بعد، لكنه أخبرها بعد زواجه منها أنه ولد وعاش في قرية صوبا القريبة من قرية القسطل، وكان مع رفاقه خلال تلك الفترة يشكلون مجموعات من أربعة إلى خمسة رجال، يهاجمون قوات الاحتلال الغازية على شكل كمائن متقدمة، ولم يكن معهم غير بنادق قديمة "سواري إنجليزي وألماني وفرنساوي" وبعض المسدسات القديمة، أو بنادق الخرطوش.. وحين أخبرها ناجي عن قصة المحتلين الغرباء، قال إنهم أقوام مغضوب عليهم، لا أرض لهم ولا وطن، لا يربطهم دين ولا تجمعهم لغة، بعضهم يدين بدين موسى عليه السلام، والكثير منهم لا دين له، إسرائيليون وصهاينة

ويهود وأجناس متفرقة، غرباء عن محيطنا العربي، هائمون على وجوههم مثل الغجر.. يتركون ظلالاً صفراء كأوراق الخريف أينما حلوا وكيفما ارتحلوا.. قدم بعضهم إلى فلسطين بعد تفكك الامبراطورية العثمانية في بداية القرن العشرين كتجار أو سواح، وخلال الحرب العالمية الأولى، كثفت بريطانيا جهودها لإنشاء كيان لهم في فلسطين، وسمحت بمساعدة الدول الكبرى لأعداد كبيرة من يهود روسيا وأوروبا الشرقية بطرق غير مشروعة بالهجرة إلى فلسطين للخلاص منهم.. مثل أسراب الجراد غزا الغرباء أرض فلسطين من البر والبحر والجو، الأمر الذي أخل في نسبة السكان، حتى فاق عددهم عدد السكان العرب الأصليين.. ولم تكتف الدول الكبرى بذلك، بل أمدتهم بالمال والسلاح، فأسس الصهاينة ميليشيات مسلحة على شكل عصابات، بهدف القضاء على أصحاب الأرض، وإحلال شعب مكان شعب.. ومع أن أهل البلاد قاوموا الغزاة بما يملكون من سلاح خفيف أكثر من ثلاثين عاماً، إلا أن مجلس الأمن أصدر قراراً قبل النكبة بعام واحد بتقسيم فلسطين إلى دولتين، الأولى عربية والثانية للغرباء.. وكان هدف الدول العظمى من هذا القرار تشكيل كيان غريب لهم كالسرطان وسط العالم العربي، ليكون بوابة ومنطقة عبور للسيطرة على اقتصاد الشرق الأوسط.. رفض العرب القرار، واندلع قتال بينهم وبين قوات الاحتلال، اندفعت الجيوش العربية لطرد المحتلين ومنع إقامة دولة لهم،

إلا أن قرار وقف إطلاق النار الذي أصدره مجلس الأمن حال دون دخول الجيوش أرض فلسطين، ومع وقف إطلاق النار الذي لم يلتزم به الصهاينة، نجحت قواتهم باحتلال أجزاء كبيرة من فلسطين، ومساحات تفوق ما حصلت عليه في قرار التقسيم، بينما سيطرت الأردن على الضفة الغربية والقدس الشرقية.

يسترجع جلال الأحداث في ذاكرته، ويتذكر ما قالته والدته عن ناجي في تلك الفترة، قالت إنه كان مع الثوار، وإنه شارك في معركة القسطل التي قادها عبد القادر الحسيني عام النكبة، فبعد تناوب السيطرة بين عصابات الصهاينة والثوار على القسطل ثلاث أو أربع مرات، استشهد عبد القادر الحسيني وسقطت القسطل، يومها خرج الثوار يشيعون الشهيد عن طريق قرية صوبا وحطاتهم على رؤوسهم بدون عقلة، دليل الحزن الذي ألمّ بهم.. دمّرت عصابات الاحتلال كل ما في القسطل، بيوتها، حصونها ومسجدها.. وعلى أثر سقوطها وتوارد الأخبار عن سقوط بعض مدن الساحل، ومذبحة دير ياسين، دبّ الفزع بين أهل القرى.. مذبحة دير ياسين كانت القشة التي قصمت ظهر الأهالي في قرى القدس الغربية، هرب الناس طلباً للحماية، ولم يكن أحد يدري ما الذي سيحدث، كانوا يقولون إن الذي يبقى في قريته تحت سيطرة قوات الاحتلال يعتبر خائناً.. بقلوب وحواس ميتة، دمرت عصابات الصهاينة قرية القسطل وقرى صوبا وخربة اللوز

وقالونيا ولفتا وباب الواد وبيت محسير وساريس، وعشرات القرى الواقعة في ضواحي القدس من الجهة الغربية.. رحل الآلاف من المهجّرين إلى الأردن أو الضفة الغربية لنهر الأردن، وهاجر بعض الأهالي من شمال فلسطين إلى لبنان أو سوريا، كما التجأ البعض إلى مصر أو غزة.. وأضافت جليلة وهي تمسح دموعها بكف يدها "يا حسرة عليهم، انخلع الباب وتفرق الأحباب، وصار كل حي في مكان، لا يدري عن أقاربه شيئاً ولا يعرف مكان إقامتهم".

الفلسطينيون كانوا محاصرين أيام النكبة، "أضافت جليلة"، الطرق مسدودة، والمدن والقرى تحت السياط، كان الناس جائعين، عزّلاً، أيام لا نهاية ولا نور لها، الأبواب مغلقة، وباب وحيد مفتوح على المنفى.. تيه قبل الفجر يبحث عن وطن مسلوب.. فجأة وجد ناجي نفسه يكبر، كما وجد الهزائم تكبر معه، هزائم متنوعة وعلى مقاس روحه، تهب مع كل فجر وفلسطين تُغتصب على مرأى من عيون العالم.. ومنذ ذلك اليوم وهو يحاول أن يغير طعم هذا الزمان الذي اقتلع البشر من أوطانهم.

بعد الهجرة، ولسنوات عديدة، وخلال إقامته في مخيم قلنديا، ظل ناجي يعود متسللاً إلى الأراضي المحتلة، "تضيف جليلة"، تارة يعود بكيس برتقال، وتارة يقول إنه اشترك مع مجموعة فدائية، وقام بعملية ضد قوات الاحتلال غرب القدس.. وقبل حرب حزيران بعامين،

التحق بحركة المقاومة لاستعادة أرض فلسطين المحتلة، لكن جنود الاحتلال قبضوا عليه، أسروه وزجوه في السجن قبل أن يشترك في الحرب.. قال العرب إنهم سيعيدون حيفا ويافا في حزيران، لكن هذه الحرب بددت آمالهم باحتلال كامل فلسطين من البحر حتى النهر، كبرت النكبة وراحت تقص على أبنائها شيخوختها، أما حزيران النكسة، فأخذ يسرد عليهم قصص شبابه مع رحلة معاناة جديدة إلى الدول العربية.

***

يستعيد جلال حكايا والدته، تأتي الذكريات وتذهب مع انسياب الحافلة التي يستقلها، يفكر بأشياء مختلفة تماماً، تتراءى له والدته في مخيم البقعة بعد حرب حزيران، تهب الذكريات في رأسه بغتة، ولا يعرف كيفية الخلاص منها، يتحمل الألم وتتوارى الذكريات، ينسى كل شيء، ويجلس في مقعده مثل دمية مسمّرة.. تتراءى له الأحداث من جديد.. يرى نفسه وهو في السابعة عشرة من عمره، وحافلة تقله من عمان، بعد يوم دراسي من أيام رمضان، إلى مخيم البقعة، يومئذٍ ترجل من الحافلة، وجلس يستريح تحت لوح من الصفيح أمام بيته، يستنشق الشذى الناتج عن خلط زيت الزيتون مع البصل في المطبخ، ووالدته تعد طعام الإفطار.

الفصل كان خريفاً، ولم يكن أمام ناظريه سوى ساحة مقفرة عارية، أقيم على مقربة منها بيوت طينية، وعلى مسافة عشرة أمتار، كان هناك دالية عنب هرمة، تخشبت وذبلت عند الجذور، تسلقت نصف المسافة على عريش من الأسلاك الصدئة، ضرب الخريف البارد أوراقها، وبدت فروعها تشبه هيكلاً عظمياً، تعلقت بالأسلاك، وقد تعرت من الأوراق.

توارت الشمس خلف الغيوم ذلك اليوم، اندفعت سحابة سوداء وتسلقت عرض السماء، غيمة هلامية متشعبة ممتدة على حافة الأفق الغربي، أطرافها نحاسية رقيقة، تمتزج مع لون السماء وتضمحل فيه.. دار جلال بناظريه على القمم المحيطة بالمخيم، بدت السفوح بلون رمادي غريب، الغيوم تتراكض في السماء وتحجب أشعة الشمس الغاربة، تشكلت الغيوم وكوّنت صوراً وأشكالاً، لاحقت عيناه الأفق البعيد، أطلت في ذاكرته صورة والده بين قضبان سجنه، وتراءت له زيتونة غريبة في حقل بعيد، تحتضن عند جذورها جثة جده.. اشتدت الرياح وتساقط رذاذ خفيف على المخيم، يغسل أزقته وأسطح البيوت، رياح تعابث حبال الغسيل، تأتي باردة كأنها مسحت في طريقها جبالاً من الثلوج قبل أن تصل المخيم، محملة بذراته اللاسعة.. ظهرت والدته عند باب البيت، تأملت المخيم وهو يغتسل بماء المطر، أدرك أنها تتذكر مطراً آخر في مخيم آخر، جاشت نفسه بمشاعر غامضة، خامرته رغبة في

المشي تحت الرذاذ، تمشّت والدته إلى الحمام المشترك بينها وبين الجيران، مياه الصرف الصحي تسيل في قناة مكشوفة مع مياه الأمطار، لا تكترث والدته للرائحة التي تقتحم أنفها، تعود وتتمشى ببطء، تغوص قدماها في برك المياه العادمة، يتذكر أيام الشتاء ووالدته أمام البيت في مخيم قلنديا، شلالات المياه لا تخيفها، تتوقف تحت المزراب وتغسل قدميها، تقف، وتقضي أكثر من خمس دقائق تحت الماء قبل أن تناديه لتناول طعام الإفطار.. يشعر جلال أنه يتمرغ في طوايا نفس صدئة، يبحث بألم في أغوار متاهة أعماقه، على أهدابه المرتعشة مئات الأسئلة، وبين شفتيه القلقتين ألف صرخة، يتساءل في قرار نفسه، "مَن أنا ومَن أكون؟ لِمَ خُلقت مشرداً، ولم لا أكون في وطني، وأحلم!.. أجل أحلم مثل بقية الناس، لا يستطيع الإنسان أن يكف عن الحلم، الأحلام لا تشيخ، إنها أكبر من الواقع، وكما الطعام غذاء الجسد، فالأحلام غذاء الروح".. ويتمتم كمن يحدث نفسه "لماذا يحن الغريب دائماً إلى وطنه، رغم قسوته وجوعه وقهره!".. يشعر باختناق، يفكر بغربته الطويلة الثقيلة، يخفي وجهه براحتيه.. بحجم اغترابه كان حلمه، وكان حلمه الأول والأخير العودة إلى وطنه.

***

سنوات عجاف طويلة مرت في حياة جلال، ومع ذلك لم ينس قصة محاكمة والده القابع في سجون الاحتلال، كما لم ينس قصة الرجل الذي وشى بوالده.. فما زال يذكر زيارة "أبو جهاد" المفاجئة ذات مساء لهم في مخيم البقعة.. تلك الليلة أفرغ أبو جهاد كل ما في جعبته وهو يتحدث عن رفيق زنزانته، ناجي الصوباني، طوال المدة التي قضاها في السجن.. قال إن ناجي فقد أخبار أسرته بعد الخامس من حزيران، وخابت آماله بعد أن عرف أن زوجته رحلت مع من رحلوا إلى شرق الأردن، ولم تثبت في الأرض كما أوصاها في زيارتها الأخيرة له في السجن.. وحين تحدث أبو جهاد عن نفسه، قال إنه وقع في قبضة جنود الاحتلال قبل أكثر من عامين من نكسة حزيران، أثناء تنفيذه عملية تفجير أحد الجسور قرب بلدة بيت جبرين، الواقعة بمحاذاة الخليل من الجهة الغربية، كان واحداً من مجموعة فدائية مكونة من سبعة أشخاص.. تلك الليلة فاجأتهم دورية من حرس الحدود وهم يسيرون ليلاً، أطلقوا عليهم النار، تفرقت المجموعة عن بعضها البعض، وواصل أبو جهاد إطلاق النار حتى نفدت منه الذخيرة، ولم يتم اعتقاله إلا بعد أن أصيب بيده وساقه، ومع ذلك نجح أفراد المجموعة في تفجير الجسر.

قضت محكمة الاحتلال العسكرية على أبي جهاد بالإعدام، وأمضى أكثر من شهر ونصف في زنزانته يرتدي اللباس الأحمر تمهيدا لإعدامه، ومع ذلك ظل صامداً، وقال لجلال الذي كان يصغي إليه تلك الليلة

بلهفة، أنه كان يتمنى إعدامه، لأنه كان دائم التفكير في الأبطال الثلاثة الذين أعدمتهم بريطانيا بتهمة مقاومة الاحتلال، عطا الزير، محمود حجازي، ومحمد جمجوم، ويتمنى أن يكون مثلهم.. وأضاف "عندما يحدد الإنسان لنفسه النهاية، يذوي الإحساس بالخوف، وتأتي تلك السكينة التي تمكنه من الرحيل عن الحياة بعزة وكرامة.. ماذا يعني أن يموت الإنسان بطلاً!.. يموت جسده! الإبادة الجسدية للإنسان لا تعني إبادته تماماً، يظل خالداً مع الوطن، مع رفاقه المقاتلين، ومئات وآلاف الناس الذين أحبهم وأحبوه، احترمهم واحترموه، وستظل أعماله التي أفادت وطنه تاريخاً في سجل الأجيال القادمة".

ذات صباح، تفاجأ أبو جهاد بزيارة لمندوب الصليب الأحمر الدولي، يبلغه بأنه سيكون ضمن صفقة تبادل أجرتها قوات المقاومة مع المحتل، يتم بموجبها إطلاق سراحه، مقابل أن تطلق المقاومة جندياً من جنود الاحتلال، أسر في عملية بجنوب لبنان.. ومضى أكثر من أربعة أعوام وثمانية أشهر وهو في سجنه مع رفيقه ناجي قبل أن تتم الصفقة.. نُقل أبو جهاد إلى رأس الناقورة في جنوب لبنان، وتسلمت قوات الاحتلال الجندي الأسير، ولأعوام ثلاثة استقر أبو جهاد في مخيم البرج في الضاحية الجنوبية من بيروت، وخلال تلك الفترة، كان دائم البحث عن جليلة وتقصي أخبارها، إلى أن عرف أنها تقيم في مخيم البقعة القريب من عمان،

فشدّ رحاله إلى الأردن ليطمئن على أحوالها وأحوال أسرتها، كما أوصاه رفيقه ناجي.

وفي حديثه عن رفيق زنزانته ناجي، قال أبو جهاد بأن قوات الاحتلال اتهمته بمقاومة المحتل وتهريب أسلحة إلى رجال المقاومة، زجوه في سجن انفرادي قبل التحقيق معه، في الأيام التالية، امتلأ السجن بمعتقلين قيل إنهم من رجال المقاومة، وكانوا كلما اقتاد الجنود أحدهم، عزلوه في إحدى غرف الطوابق الأرضية، ليأخذوه بعد أيام إلى ساحة السجن الخلفية، حيث يتم ضربه واستجوابه تحت أشعة الشمس الحارة، قبل طرحه في قبو تحت الأرض.

القبو الصغير بات يؤوي عشرين سجيناً أو أكثر، مما اضطرهم إلى النوم وقوفاً، "أضاف أبو جهاد"، اتسخت أجسادهم وغزت ملابسهم القمل والبراغيث، وكان الجنود يقودونهم جماعياً إلى الخارج مرة أو اثنتين يومياً، ولم يكن ذلك كافياً لقضاء حاجاتهم، فامتلأت زوايا القبو بالبول والبراز، وصعدت منها الروائح الخانقة، وكانوا يعطونهم الحساء الرقيق في صحون معدنية مرة واحدة في اليوم، ويدفعونها إليهم من بين القضبان.

وفي مرات كثيرة، كان بعض الجنود من الطاقم الأمني للسجن، يدخلون القبو كل مساء تقريباً، يختارون أحد المساجين، يركلونه

ويضربونه على مرأى من الآخرين.. يجردون المتهم من حذائه وجوربيه، يمددونه على الأرض، ويتولى اثنان منهم وضع قدميه العاريتين بين ماسورة بندقية وطوقها، ويديرانها حتى يشد الطوق على نتوء القدمين بإحكام، بينما يتولى الثالث ضرب باطن القدمين بأسلاك معدنية مجدولة، أو بعصي من الخيزران.. وكان أسوأ شيء في التحقيق والتعذيب، عندما يضعون رأس السجين داخل كيس من الخيش له رائحة كريهة، مساماته ضيقة بحيث لا يرى من خلالها شيئاً، ويصلبونه طيلة النهار، مكتوف اليدين والرجلين تحت أشعة الشمس الحارقة، أو البرد القارص إذا كان الفصل شتاء، عندها يتمنى السجين أنه لم يولد، يشعر أنه يختنق من الروائح والذباب والبعوض يأكل جسده.. والأسوأ من ذلك حين يجردون السجين من ملابسه ويغتصبونه.. لا يتركون له لحظة لينام فيها، موسيقى صاخبة تئز وتصم أذنيه، وأضواء باهرة يسلطونها على عينيه ليبقى مستيقظاً حتى ينهار ويعترف.. وعندما يحين موعد محاكمته، يدعونه مساء، ويقتادونه إلى طابق علوي، ليختفي نهائياً عن أعين زملائه، وفي الصباح، يقيدون يديه ورجليه بسلاسل رفيعة حادة، ويحجبون عينيه بشريط قماشي، ثم يقتادونه في عربة مصفحة، يحرسها جيبات عسكرية إلى المحكمة.

وأسوة بالآخرين "أضاف أبو جهاد"، اقتيد ناجي خارجاً، تم ركله وضربه، وكان أحدهم يصرخ في وجهه، ويطلب منه الاعتراف بأماكن

تواجد رجال المقاومة، وإنه من مخططي عمليات تهريبهم وتهريب السلاح إليهم.. إلا أن ناجياً ظل متمسكاً بروايته الأولى، لا يعرف شيئاً عنهم، كما لم يشترك في عملية تهريب أيٍّ منهم، على رغم رفس الأقدام ولسع السياط، وتقييد الأرجل وضرب باطن القدمين، حتى بات لا يقوى على المشي.. وفي مواجهة مع الواقع، اقتيد بعد أيام عدة إلى الكهف الذي قيل إنه أخفى فيه رجال المقاومة، لكنه أنكر كل شيء.

لدى إعادته إلى السجن، راح ناجي يفكر في من عساه يكون الخائن الذي أفشى سر إخفائه وتهريبه لرجال المقاومة، وأخذ يتذكر من كان يساعده في ذلك، إلى أن تذكر أحد الرجال ممن كانوا يتحمسون للثورة كلامياً، ويبدون استعداداً للموت في سبيل الوطن، رجل قصير القامة ممتلئ الجسم يدعى "يونس"، كان ناجي قد أشفق عليه وضمه إلى مجموعته، ولم يكن لديه أية فكرة عنه عندما ادعى تلك الأيام أن جنود الاحتلال قتلوا شقيقه، ويرغب في الانتقام من القتلة.. ولدى دخول ناجي بوابة السجن، نظر ليرى الرجل نفسه خارجاً من الباب مع أحد الضباط، دون أن يبدو عليه أنه سجين.. وفي الحال عرف ناجي من الذي وشى به، وأدرك أنه لن يرى النور إلا من وراء القضبان.

أضاف أبو جهاد، إن ناجياً حدثه تلك الليلة عن الرجل الواشي، وأدرك أنه رجل ميت لا محالة، ولن يخرج من السجن، أما إذا قدّر له

الخروج من السجن، فسينتقم من ذلك الرجل، ولن يتركه يفلت من العقاب.

صباح اليوم التالي، بوشر بتعذيب ناجي بهدف تجريده من كل مقاومة، عله يعترف بدوره أخيراً.. اقتاده الجنود إلى الساحة الخلفية، ضربوه، وتحت وقع السياط اعترف بجميع التهم الموجهة ضده.

في يوم المحاكمة، وبعد قراءة لائحة الاتهام، نهض المدعي العام، عسكري قصير الشعر، برز رأسه الصغير من صدار عسكري نظيف ومرتب، وقرأ بصوت جهوري رنان اعترافاً طويلاً كتبه أحد المحققين، وطالب بالحكم على المتهم بالسجن المؤبد مع الأشغال الشاقة.. أما رئيس المحكمة فقد طلب من ناجي الاعتراف بكل ما ورد في الوثيقة، إلا أن ناجياً رفض الإجابة، فصاح فيه المدعي العام "لماذا تخاف، أين الشجاعة التي أظهرتها حين أدليت باعترافاتك؟".. غير أن ناجياً اكتفى برفع عينين بلون الجمر وهزّ رأسه.. وهنا دعا القاضي شاهد الإثبات، رجلاً قصيراً ممتلئ الجسم، وقف أمام القاضي متجنباً النظر إلى ناجي، وأدلى بشهادته واصفاً كيفية إيواء المتهم للمسلحين في كهف قريب من بيته، وإخفائهم عن أعين حرس الحدود، ثم تهريبهم عبر نفق إلى الحقول على نحو مفصل ومقنع.. وغدا وجه ناجي بلون الرماد، لكنه حافظ على هدوئه وهو يقول "هذا غير صحيح، فالثوار يعرفون كيف

يقاتلون ويختفون، وهم ليسوا بحاجة إلى أحد يدافع عنهم، وليس هناك رجل واحد في العالم يقاوم المحتل، ولا يعرف كيف يضرب ويختفي".

وخلال مشاورة القضاة، أخذ الحضور يجيلون أنظارهم ويسعلون، إلا أن أحداً لم يتكلم.. وأخيراً صرخ أحد المتهمين من خلف القضبان قائلاً إنه يعرف ناجياً جيداً، وليس له علاقة بالأمر.. فقاطعه أحد القضاة وطلب منه السكوت، ولم يستطع ناجي أن يقول كلمة واحدة دفاعاً عن نفسه، وعندما حاول النطق لم ينصت إليه أحد، وتجمدت كلماته في فيه كمن أصيب بالخرس.. كان الحكم قد صدر وصيغ سلفاً.. وقف القضاة لإعلان الحكم، فيما وقف المتهمون بشموخ، وقرأ كبير القضاة على مسامعهم أن الشهادات المقدمة ضد ناجي وثلاثة متهمين آخرين لا يمكن دحضها، والمحكمة أثبتت جرمهم، وحكمت عليهم بالسجن المؤبد.

وحين تم نقل ناجي إلى سجن عسقلان، صعد بقدمين حافيتين ملطختين بالأسود والأزرق، "كما قال أبو جهاد"، كان ناحل الجسم وشاحباً، كما صعد ثلاثة مساجين إلى الشاحنة العسكرية بأقدام عارية وأرجل سوداء منتفخة، وأيدٍ مكبلة، يرافقهم الجنود، ويحيطون بهم من كل جانب.

***

يسترجع جلال الأحداث في ذاكرته مثل كابوس.. وفي دخيلته يقسم أنه لن يترك الواشي يمر بفعلته.. يتمنى لو يجد نفسه أمامه، يواجهه لحظة، ويقول له وهو يدفن مدية في قلبه "أنا ابن ناجي الصوباني، الذي سرقت منه الحياة".. يتراءى له والده ينتصب أمام عينيه، ويتذكر ما قالته والدته جليلة بأنها لم تكن المرة الأولى التي يسجن فيها والده، فقد تم اعتقاله سابقاً، وداهمت قوات الاحتلال منزلهم مرات عدة وعاثت فيه فساداً.. كانت ابنتها نبيلة في عامها الأول، وكان ناجي يختبئ مع ثلاثة من رجال المقاومة في سرداب تحت الأرض، عندما داهم الجنود البيت.. صرخت الرضيعة، وراحت تبكي، احتضنتها والدتها بين يديها، لكن صراخ الطفلة ازداد حدة، حاولت جليلة تهدئتها مرة أخرى بإعطائها حلمة صدرها، لكنها رفضت وظلت تصرخ، هرع ناجي نحو طفلته وقد بدل الخوف سحنته، وهمس في أذن زوجته "ضعي يدك على فمها"، وما إنْ فعلت جليلة ذلك حتى ران صمت عميق، وتنفس الجميع الصعداء، نظروا حولهم وهم يتوقعون اكتشاف الجنود للسرداب بين لحظة وأخرى.. أخذت الطفلة تتلوى باهتياج فيما استحال لون وجهها إلى اللون الأزرق، تنهدت جليلة وقالت "لا أستطيع الاستمرار في كبتها، إنها تختنق"، وما لبثت أن رفعت يدها عن فم ابنتها، استعادت الرضيعة أنفاسها وزعقت على نحو أقوى من قبل، وإذ ذاك صرخ ناجي "أعطني إياها لأخنقها"،

ونظروا كلهم إليه ظناً أن ما يقوله طرفة لا تصل حد المعقول، غير أنّهم رأوه جاداً في ما يقول، وما إنْ مد يده إلى الطفلة حتى تشبثت جليلة بابنتها، وأدارت له ظهرها هلعاً، وهي لا تصدق أن زوجها الذي كان عطوفاً على الدوام، يمكن أن يفكر في أمر كهذا.. قبضت على ذراعه وهمست "ما الذي تقوله يا ناجي!؟" ثم صرخت حين حاول سلب الطفلة من بين ذراعيها، فاستأنفت الطفلة البكاء، مما دفع الجنود إلى تتبع الصوت وإلقاء القبض على ناجي، بعد أن تدبر أمر هروب المجموعة من خلال نفق أرضي قادهم إلى حقل قريب.

***

طالت ساعات السفر، ولم تتوقف الحافلة بعد، السائق يسابق السيارات الصغيرة بحافلته للخروج من منطقة الموت، ولم يبق سوى ساعة للحدود كما قال، "أيام طويلة مرت منذ نكسة حزيران".. قال جلال في سره، لكن الأيام لم تنسه والده وبيته ووطنه وياسمينه.. ياسمين لا زالت تدغدغ أحلامه، تسري في كيانه كما يسري الدم في شرايينه، كانا صغيرين، ومع ذلك شعر أنها جزءٌ منه، وحين كادت تغرق في النهر، أحس بتوقف أنفاسه، وكأنه يفقد ظله وروحه، ومع أنه لم يرها منذ تلك الأيام، إلا أن صورتها لم تفارق خياله، ظلت صورتها تطارده، لا تغيب عن باله إلا كي تحضر ثانية، خاصة في أعوام غيابها

الأولى، كل وجه أنثوي رآه كان يقارنه بوجهها تلقائياً، ياسمين تربعت في ذاكرته وسكنت أوصاله.. ومع أن الشتات ابتلعه، إلا أنه لم يقطع الأمل من رؤيتها.. عارك الأيام وعركته، كشرت عن أنيابها وعاندته الليالي وهو يسعى إلى قوت يومه، ومع ذلك استطاع التغلب على المصاعب، اجتاز المرحلة الابتدائية في مخيم البقعة، وواصل دراسته الثانوية في عمان، وخلال تلك السنوات عمل بائعاً للكتب في إحدى دور النشر، فما أن ينتهي من دوامه المدرسي بعد ظهر كل يوم، حتى يتوجه إلى المكتبة، يطالع كل جديد، ويقرأ كل ما تقع عليه عيناه.. وما أن يموت الليل حتى ينتزع نفسه من الفراش مع شروق الشمس ليتابع دوامة الحياة.. عمله المتواضع أتاح له كل ما هو متواضع في الحياة.. يعود نهاية اليوم بعد التاسعة مساء من عمان إلى بيته في مخيم البقعة مكدود القلب والجسد، يرتمي في أحضان فراشه المتواضع، يبحث بين جنباته عن الراحة، يتقلب مفتوح العينين حتى يسرقه النوم من عذابه، فيستسلم له.

ذات مساء، وكان في عامه الدراسي الأخير، وقفت سيدة على باب المكتبة التي يعمل فيها، بينما دلفت فتاة ترافقها تسأل عن كتاب معين.. ناولها الكتاب ونظر إلى السيدة التي تبعتها وفتحت حقيبتها لتدفع ثمن الكتاب.. لم يتجاوز الأمر ثوانيَ معدودة، أحسّ وكأن مطرقة هوت فوق رأسه، أرجعته سنوات طويلة إلى الوراء، شعر أن ملامح وجه

السيدة موسوم في ذاكرته.. همس لنفسه "كأني أعرف هذه السيدة".. سألها "اعذريني على تطفلي بسؤال، كأني أعرفك، هل تعرفين سيدة تدعى جليلة كانت قبل حرب حزيران تقيم في مخيم قلنديا؟

نظرت إلى ملامحه وتأملت وجهه جيداً.. ابتسمت وقالت: أنت جلال ابنها!؟

غامت الدنيا في عينيه، تذكر نكسة حزيران والشتات وياسمين التي كادت تغرق في مياه النهر.. أيقظته السيدة من شتات أفكاره، قالت "ما أخبار والدتك، اشتقتُ إليها، نحن نقيم في مخيم الوحدات، أحضرها لزيارتنا..".

لم يسمع بقية الكلمات.. راح يتأمل الفتاة التي ارتبكت وأخذت تنظر إليه أيضاً.. لم يرها منذ حرب حزيران، كان يطارد الأيام في سبيل المستقبل، وياسمين تطارد أفكاره منذ ذلك اليوم، تقتحم ذاكرته وترتسم أمام عينيه على صفحات كتبه، تزور مخيلته وتبهر أحلامه في لياليه الطويلة، عاجزاً عن تحقيق أحلامه بالعثور عليها، وحتى ينسى ياسمينه، كان عليه أن يستمر، وياسمين واحدة من قرى فلسطين والأشياء التي فقدها ما زالت محفورة في القلب والذاكرة.

في مخيم قلنديا كانا يلتقيان في الحقول القريبة، يلعبان ببراءة الطفولة تحت رذاذ المطر، والعالم من حولهما أخضر لا متناهٍ.. أما اليوم، فها هي

ياسمين حقيقة أمام عينيه.. ازدحمت المشاعر والكلمات في داخله، كان ثمة شيء في لون شعرها الفاحم، وعنقها، يضغط على قلبه، لا تكاد تبلغ السابعة عشرة من عمرها، وشفتاها الورديتان البديعتان لم يمسهما أحمر الشفاه إلا قليلاً، وكتفاها وبطنها وقوامها، وساقاها كانت كلها تنبئ، من غير أي تردد محتمل، أنها فتاة أحلامه.

***

أسفرت الأيام التي مرت بسرعة مذهلة بعد ذلك اليوم عن حلاوة مختلفة لطعم الحياة، وفي زيارة جلال الأولى لبيت ياسمين، أحس بارتباك النبض بين ثنايا أصابعه حين لامست يداها يديه.. جلست قبالته، حدق في وجهها، بدا له مبهجاً كزهر اللوز، ابتسمت وسألته: بماذا تفكر؟

رفع عينيه وقال: برام الله والبيرة والقدس وقلنديا وحزيران وأشياء أخرى متشابكة.

- سنوات طويلة مرّت، ومع ذلك ما زالت هذه الأشياء محفورة في الذاكرة.

- ذكريات الوطن قلما تُمحى، دائماً تتلألأ في ذاكرة الإنسان كبريق النجوم في فجر صيفي.

ابتسمت ثانية وقالت: أعدتني إلى زمن طفولتي، وجعلتني أرى الماضي من جديد.. لكني أراك مهموماً.

لا يدري جلال منذ متى وهو على هذه الحالة.. تمثل بسذاجة شريطاً مسجلاً يدور ويملأ الغرفة بالكلمات "إني أحبك".. شعر بضعف الكلمة الساذجة المكررة، قال: هل يمكن للمرء أن ينسى!؟

- كنا صغاراً.. قالت.
- كنت أحبك. قال مقاطعاً.

طواها الصمت لحظة، رفعت وجهها لتقول شيئاً، انفرجت شفتاها الورديتان، والتمع باطن فمها، كان بمقدوره أن يخمن ما أوشكت على قوله، لكنه انتظر كلماتها بفارغ الصبر.. قالت: هل تعرف أني كنت أحبك أيضاً.

أحس بنيران تشتعل في صدره، وهو يتذكر ملامسة وجهيهما بينما كانا يحتميان من المطر، قرب البيت في مخيم قلنديا.. سألته ما بك؟

قال: ما زلت أحبك وأحب قلنديا والقدس وفلسطين والمطر والرذاذ، إني أحب ذلك الزمن رغم مرور السنوات.

كمن يُلقي بأثقاله في البحر، شعر جلال وهو يحكى لها عن ألوان أحلامه، تبادلا النظرات، لغة العيون أفرغت ما في قلبيهما، وسرعان ما

تواصلت بينهما لغة الكلام والصمت.. حدثها عن عمله ودراسته وحالته الاجتماعية، وحدثته عن وحدتها وعن ظروفها المعاشية، ورغبتها في متابعة دراستها في التمريض، وعن والدها الذي يبيع الخضار على عربة في السوق المركزي.

انهمك معها بالحديث عن والده ووالدته وشقيقته وكوابيسه اليومية، تحدثا عن نفسيهما ومشاعرهما بإحساس صادق، حكى كل منهما للآخر حياته بخطوط عريضة، وقال لها ما يرغب به للمستقبل، وتبينا أن السحر الذي شدهما في طفولتهما ما زال موجوداً، ويكفيه قليل من الإرادة الطيبة لينتعش من جديد.. صارا أقرب إلى حلم واحد، وراح يتمعن في شعرها الأسود الكثيف الذي يغطي عنقها، بشرتها البيضاء المثيرة، وجهها النقي تتفتح فيه عينان عسليتان، جسدها الدقيق وصدرها النافر.. ارتسم على خديها احمرار الخجل الشهي، وساد بينهما الصمت، وفي داخله راحت مشاعره تتأجج، وبه رغبة في الحديث عن نفسه وعن الوطن والحرية والغربة من جديد..

تركته يتحدث مع نفسه وقامت، انسحبت كنسمة من أمامه، وكأن ألف قارورة عطر انسفحت في المكان الذي كانت تجلس فيه، وللحظات غرق في أنهار أريجها، وكان شوقه إليها حارقاً.

***

مُثقلاً بالحزن والهموم عاد جلال إلى بيته تلك الليلة، طرح نفسه على السرير كثعبان جريح يأكله النمل، شعر بسياج من الأسلاك الشائكة يلف وحدته ويلتف على رقبته، يكبّله الواقع والضغوط اليومية.. العهد الذي قطعه على نفسه، والمسؤولية الملقاة على عاتقه، والدته وشقيقته أمانة في عنقه، وعليه ألا يضيف عبئاً جديداً على أحماله.. بدا له مستقبله بلون قاتم، بعد أن كان رمادياً قبل أن يلتقي بياسمينه.. وبقدر ما كان لقاؤه معها مغرداً بفرحة أمل، بقدر ما شعر أنه محبط ذلك المساء.. تساءل، كيف يتقدم لها ولا يملك غير قوت يومه!؟.. فمنذ طفولته عاش وهْم الهروب من قدره، لكنه تحمّل في أعماقه ظرفه كمهمّش، وفي ساعة المواجهة مع المستقبل سحقه ثقل الواقع.. شعر بالحاضر يخذله، حدث نفسه "هناك أناس يولدون سعداء، وناس يولدون تعساء، قدرهم هكذا، وحتى إذا تغير حظ السعداء وخرجوا من دائرة السعادة زمناً معيناً، فسيعودون إليها، وإذا تغير حظ التعساء وخرجوا من دائرة التعاسة فترة من الزمن، فسيعودون إليها أيضاً، أما أن يصبح السعداء تعساء، أو التعساء سعداء، فهذه أشياء خارجة عن نطاق المألوف، إنهم الناس غير العاديين الذين تحدث لهم معجزات، ويصبحون فجأة سعداء".. وكان لقاؤه بياسمين تأكيداً لحكمة الذين يولدون تعساء.

منذ طفولته وهو يشعر بالتعاسة، سجن أبيه، تشرده مع والدته وشقيقته، مطاردته للقمة العيش ومتابعة دراسته وعمله.. حزْن غريب

انتابه، عبر داخله كضباب ضفاف مغلقة، شعر إن مجرد التفكير بياسمين غير قابل للتنفيذ عندما يصبح الأمر واقعاً، غير قابل للحلم أو الخيال.. الواقع يفرض نفسه عليه بكل ثقله، بجموده ومسؤولياته، وما عدا ذلك يقود إلى المجهول.

استسلم لأفكاره وترك لذاكرته حرية الحركة، تحركت نحو الحاضر والمستقبل.. أحاسيس غامضة غمرته وكسرت عزلته، انتابته موجة من رائحة ياسمينه، استبشر خيراً، وشعر بسعادة اللقاء بمن أحبها، وفي لحظة شاردة، عاد لتعاسته عندما داهمه شعور غريب بعدم القدرة على إسعادها، أو الاقتران بها.

صورة ياسمين لازمته تلك الليلة طيفاً لا يريم، لبثت ماثلة أمامه مثل خيال، كانت مشرقة كقمر، أنيقة كوردة، بريئة كنسمة، ولا يدري من أين نبع ذلك الصوت المجروح في أعماقه، يغني مواله الحزين، مر العالم في ذهنه كرمشة عين مثقلة بالخيبة، طال سهره وصدره يقدح الآه بعد الآه، ومع أذان الفجر، داهمه شعور بأن التغيير والتبديل من سنن الحياة، وحتى تتغير أحواله المادية، سيخرج عن نطاق المألوف، ويقترن بياسمين.

***

سنوات أربع قضاها بعد ذلك في بيروت لمتابعة دراسته الجامعية، لم يرها خلال تلك المدة، فمنذ إجازته بعد عامه الثاني في الجامعة، أسرع إلى بيتها، لم يجد أحداً، قالت شقيقته نبيلة التي انقطعت عن دراستها بعد الثانوية العامة، إن ياسمين اتصلت بها وقالت إنها رحلت مع والدتها من مكان سكناها بعد وفاة والدها، وعندما سألتها نبيلة عن مكان إقامتها، أجابت بأن جلالاً لم يعد يتصل بها أو يسأل عنها، ولا داعي لمعرفة العنوان.

غشت الدنيا في عينيه، وتأكد له أنه لن يخرج من بؤرة التعساء، وحين خابت آماله بلقاء ياسمين ثانية، عاد إلى بيروت، وكرّس جل وقته لدراسة الحقوق، حتى نال شهادة المحاماة، وخلال سنواته التالية، عمل كاتباً لعمود يومي في صحيفة تصدر من بيروت، واستطاع أن يحقق نجاحاً في عمله، خلع ثوب المحاماة، وتفرغ لقلمه في الصحافة، عله يخلق مساحة أكبر للدفاع عن وطنه.. وفي تلك الفترة التقى بأبي جهاد الذي كان يقيم في مخيم البرج، كان أبو جهاد يحمل السلاح ويتصدى للقوات الإسرائيلية التي اجتاحت جنوب لبنان، وحاصرت بيروت لأكثر من ثمانين يوماً، بهدف القضاء على رجال المقاومة.. ولم يتوقف القتال إلا بعد أن وافق المقاتلون على الخروج من بيروت.. يومئذٍ أشار أبو جهاد إلى عدة إصابات بالرصاص أصيب بها خلال

معارك سابقة، وكانت إحدى هذه الإصابات في رأسه، وكادت أن تقتله.

تلك الليلة، بدا أبو جهاد متوتراً وحزيناً، والأمور تتعقد وتزداد سوءاً.. قال أنه وبعد إصابته بشظايا قذيفة، نقله الرفاق إلى المستشفى، وفي سريره، بعد أن أسعفه الأطباء، بدا كأنه لا يذكر شيئاً مما حدث له، لا يذكر أين هو، ولا يتذكر ما حدث له.. نظر حوله، تراءى له جنود الاحتلال من جديد.. فجأة سحب حقنة الكلوكوز من ذراعه ووقف في زاوية الغرفة شبه عار متأهباً للقتال، تجمع الممرضون حوله، هددهم بكسر وتحطيم كل الآلات الموجودة في الغرفة، رفض أوامرهم، هرع الطبيب ليحقنه حقنة مهدئة، رفض أبو جهاد الانصياع لأوامره أيضاً، ولم يمكّنه من الاقتراب منه، وكان الشيء الغريب في تصرفاته، تلك الأصوات والرؤى التي يقول بوجودها في رأسه.. أشباح مخيلة غير محسوسة لم يولها الأطباء في البداية أية أهمية.

حقن الأطباء أبو جهاد وفحصوه من جديد، وبعد التصوير بالأشعة، تبين لهم أن بعض الشظايا ما زالت موجودة في أطراف جمجمته، واكتشفوا أن ذاكرته تغطي عشرين عاماً من عمره فقط، ويعتقد أنه عاد إلى سن التاسعة عشرة مقاتلاً في مكان ما، وما بعدها هوّة بحر سحيقة.. أجروا له عملية جراحية لنزع بقايا الشظايا، بعد أن فقد ذاكرته أكثر من خمسة أيام، قضاها خارج الزمان والمكان.

في ليلة تالية، وبعد أن استعاد جزءاً من عافيته وذاكرته، تجسّدت له أحداث الماضي لحظة بلحظة، راحت الصور تكبر وتتقدم أمام عينيه، وأخذ يستعيد ما علق بذاكرته من أحداث.. رجف وشعر أنه مثل ريشة في مهب الريح.. شعر أنه يعيش التجربة بكل تفاصيلها من جديد، يحاصره عملاء أباحوا دمه في يوم ما، وفي زنزانة غريبة، لا يذكر مكانها أو زمانها، بدا جسده مستفزاً دائماً، مشدوداً، مقاتلاً حقيقياً، وما بين لحظة وأخرى يعود مسكيناً مريضاً منكمشاً عاجزاً، كيساً من الخرق البالية.

صور قديمة باهتة الألوان مخرت رأس أبي جهاد وهو يتحدث مع جلال تلك الليلة، انفلشت ذاكرته فجأة، وراح يتذكر أصدقاءه الذين اختفوا من حياته في الأرض المحتلة وفي جنوب لبنان، واستشهدوا.. بدت أفواج اللاجئين والبيوت التي اشتعلت فيها النيران تتجسد أمام عينيه من جديد.. غيظ من الحرب، غيظ من السياسيين ومن خرائطهم، من ملايينهم وحساباتهم، من قهوتهم الحارة وأخطائهم القاتلة، من عجرفتهم التي لا حدود لها، خوف من لوائح القتلى وصور الشهداء في الصحف وعلى الجدران، وصفوف الجثث في الأكياس البلاستيكية السوداء.

خوف من الزغاريد في الجنازات بدل الدموع الحقيقية..

شعر أبو جهاد أنه يتذكر كل شيء، ويستعيد الماضي بكل تفاصيله.. قال لجلال "المقاتلون الحقيقيون هم الذين يدافعون عن الأرض والحرية، ويقفون في وجوه جنود الاحتلال.. أما السياسيون، فلا يتذكرون غير أرصدتهم، ولهم أفكارهم بهذا الخصوص".. وهمس كمن يحدث نفسه، "اللعنة على أفكارهم"، وأضاف أنه في جنوب لبنان، كان مستعداً للدفاع عن الوطن حاملاً صور الأبطال في عقله وفي شرايينه، وحين دخل المستشفى يحمل أوسمة من شظايا القنابل في جمجمته، أحس أنه محبط، مهزوم من أعماقه لأنه لم يستطع أن يلتحق بمواكب الشهداء، ولم تعلق صورته على الجدران أسوة برفاقه.. تحطم الكثير ممن تحملوا جهامة القتال عندما عادوا من الجنوب، وتأكدوا بأنفسهم أنه لم يكن لهم مكان على الأرض العربية.. وتساءل، "لماذا يموت أبناء وطنه بالمئات ويُقتلون دون ندم قبل أن تطأ أقدامهم أرض الوطن! ولماذا يواجه المقاتلون عند عودتهم من أرض المعركة عدوانية أكثر شراسة من عدوانية أعدائهم، ويشار إليهم كقتلة وإرهابيين، تُطلق عليهم النيران، أو يُلقى بهم في غياهب السجون!".

زفر أبو جهاد ثانية وقال "لا أحد يفهم كيف يمكن إرسال ركاب إلى الفضاء، ولا توجد طريقة لإنهاء هذا الصراع الذي لا نهاية له".. وأضاف بعد لحظة صمت "الحياة مجموعة من المهازل.. يظن المرء نفسه

أنه سيعيش إلى الأبد، لكن العمر يصير ملحاً وماء، ولا يعرف كيف ينتهي".

كمن يمشي على شفرات حادة، استعاد أبو جهاد ماضيه، ونشطت ذاكرته تلك الليلة، راح يتذكر الأحداث لحظة بلحظة إلى أن وصل به المطاف إلى المستشفى.. سأله جلال "كيف ترى نفسك بعد كل ما حدث لك؟".

تنهد وقال "أرى نفسي عجوزاً أكثر من الليلة الفائتة، وأقل من الليلة القادمة".

ابتسم جلال وقال: الحمد لله، انظر حولك، ستجد نفسك أفضل من غيرك.. أنت ما زلت على قيد الحياة، وعليك أن تعيش حياتك كاملة بآمالها وآلامها.

شعر أبو جهاد بروحه تعود إليه، تثاءب وأحس أن جسمه يتهدم، نظر إلى سقف الغرفة، تساءل في قرار نفسه "ماذا جرى له!"، قام وفتح صنبور الماء، خلع ملابسه، ونظر إلى نفسه في المرآة.. شاهد مكان إصابته، تأمل صورته ثانية، المنكبان ضامران.. كان معتاداً على تجاوب جسده معه بحيث لم يكن باستطاعته أن يتخيل أنه مصاب.. مرّر يده على رأسه وعلى شعره، تبين أنه لم يبيضّ فحسب، بل يتساقط أيضاً.. تذكر أحد زملاء الثورة، كان يدهن شعره بدهان الأحذية الأسود

ليخفي لونه الأبيض.. استطاع أخيراً أن يتذكر وأن يسمي الألم ويفهمه ويتعامل معه، موقناً أنه سيبقى موجوداً بطريقة أو بأخرى في حياته.. شعر أنه خف من إصابته بطريقة عجيبة، استعاد عافيته، واختفى الكابوس الذي لازمه طيلة الفترة السابقة.. قال بأن الجروح لن تمنعه من حمل السلاح، وأضاف وهو يتذكر الماضي بكل تفاصيله إن المعلومات التي وصلته عن الرجل الذي وشى بناجي، تقول إنه ما زال على قيد الحياة، وإنه يعيش في القدس بعد أن غيّر اسمه من يونس إلى ياسين، وحصل على الكثير من المال مقابل تجسسه على المقاتلين والوشاية بهم.. ويوم أن غادر المقاتلون بيروت على سفن الضياع بعد وقف القتال، غادر أبو جهاد معهم، وانقطعت أخباره.

أما جلال، فقد بقي في بيروت، وبعد أن نجا من إصابته خلال مذبحة صبرا وشاتيلا، أصر على فضح ممارسات جنود الاحتلال، وما يقترفونه من مذابح ضد الفلسطينيين، من خلال عمله في الصحافة.. ومع أن سنوات عديدة مرت، إلا أنه لم ينس أبا جهاد، كما لم ينس ياسمينه، وظلت ذبذبات من الألم ترسل موجاتها إلى قلبه، ولا يدري إذا كان قد ظلم ياسمين أو ظلم قلبه!

***

حلم العودة

على صوت السائق وهو يعلن عن اقتراب الحافلة من الحدود العراقية، صحا جلال من كوابيسه.. العرق يتصبب من كل أنحاء جسده، ركاب الحافلة يتذمرون ويروّحون بأيديهم، مختنقين من جرّاء الهواء الساخن الذي يلفح وجوههم، يشعرون بالضيق من خشونة مقاعدهم، ومن ملابسهم التي بللها العرق، وأجسادهم تنخزهم كأنما ثمة حشرات تقفز بأرجلها على جلودهم.. وحين توقفت الحافلة عند نقطة الحدود، بدوا عطشى وحزانى كأنهم تائهون وسط صحراء.

الحدود العراقية تكتظ بالمسافرين كأنه يوم الحشر، طلب جنود يحملون بنادق سريعة الطلقات من ركاب الحافلة الترجل، والالتحاق بالصفوف لختم جوازاتهم.. صفوف طويلة تقف تحت حرارة الشمس، تحمل بين أيديها أوراقاً وجوازات سفر.. خرج جلال من وسط الطابور يبحث عن شربة ماء، نهره أحد الجنود، أمره أن يلتزم مسربه حتى ينتهي من ختم أوراقه.. عاد إلى مكانه بصمت، تأمل وجوه وسحنات المغادرين، وجوه صفراء عابسة وصامتة، ومبنى متواضع يفصل الناس والأقارب والدول بعضها عن بعض، لا يمكن اجتيازه إلا بأوراق رسمية تصنف المرء وتعرّف جنسيته.. إنها الحدود.. "حدّث جلال

نفسه"، كلمة طالما أفزعته كما أفزعت المسافرين العرب أثناء تنقلهم بين بلادهم العربية.. ما إنْ ينجو المسافر من حدود بلد ما حتى يتنفس الصعداء، ويحمد ربه ألف مرة بعد أن نجا من قبضة المخابرات، أو الأزمة الخانقة التي تعانيها حدود كل دولة.. وهكذا كان.. تنفس جلال الصعداء وصعد إلى الحافلة ثانية بعد ساعات عدة من الوقوف والانتظار.. المرة الوحيدة التي اجتاز بها الفلسطينيون حدوداً بلا أوراق تثبت جنسيتهم، كانت يوم خروجهم من الوطن، كان تشردهم وسحنات وجوههم، كلمة "لاجئ" أو "نازح" وحدها كانت كافية لتدل على جنسية كل فرد، كما قالت له والدته ذات يوم.. هكذا حدث جلال نفسه وراح يتساءل في دخيلته عن الحدود الغريبة والبعيدة بين الإخوة في الضفة الغربية وغزة، وما إذا كان المواطن الفلسطيني يحمل أكثر من وثيقة سفر!.. وفي خضم هذا التساؤل وجد نفسه في صراع وحيرة حول اسم الدولة الفلسطينية في حال تحررها واستقلالها، ماذا سيكون؟ "الولايات المتحدة الفلسطينيّة أو جمهوريّة غزّة ورام الله"، وفلسطينيو ما قبل النكبة الذين تشبثوا بأرضهم، وما زالوا يقيمون في الأرض المحتلة، ماذا سيكون مصيرهم، هل سينضوون تحت لواء غزة أم رام الله!؟.. عشرات الأسئلة دارت في رأسه، وبدا له الأمر وكأن خارطة الدولة ماثلة أمام عينيه.. وعلى اهتزازات الحافلة وهي تقلع ثانية نحو الحدود الأردنية، أغمض عينيه، وتراءت له خلالها معالم

الدولة الفلسطينية القادمة، شاهد سلاح المقاومة الفلسطينية مدموجاً في صلب جيش فلسطيني واحد، شعب واحد ودولة فلسطينية واحدة، يسودها النظام والحرية والديمقراطية.. لكن التساؤلات التي أقلقت راحته كانت عن الفصائل الفلسطينيّة، ما إذا كانت ستتحول إلى أحزاب معترف بها!، أم أنّ الحكومة الجديدة ستعمد إلى سياسة الحزب الواحد والزعيم الأوحد أسوة ببعض أشقائها العرب!، وما هو مصير الأسلحة التي اشترتها الحكومات العربية المتعاقبة لمحاربة المحتل، ثمّ خزّنتها في الأقبية ليتوسّدها السّجناء الذين فكّروا في استعمالها؟، ثم ما مصير بعض الدول التي عبأت شعوبها على ادّعاء مساندة الفلسطينيين، ووضعت كلّ من يناوئها في السجون، بتهمة إعاقة جهود الدولة عن مواجهة قوات الاحتلال!؟

عند الحدود الأردنية، توقفت الحافلة ثانية وقطعت استرسال أفكاره.. حدّث جلال نفسه "عندما أصل إلى عمان ينتهي الأمر، وتغدو كوابيس الرحلة من الأحلام".. وأضاف في سريرته "عاجلاً أو آجلاً ستتوقف الحافلة، ففرح المسافر الحقيقي هو الوصول، أما محطات الاستراحة فحلم يسبق المرء باستمرار".

***

سائق الحافلة يمسح وجهه بالماء، يبدو أنه يشعر بإرهاق شديد، يصعد ويجلس في مقعده، يجيل نظره من خلال مرآته العاكسة إلى الركاب، تتوقف نظرات جلال على مخيم قريب من الحدود الأردنية، يسترجع في ذاكرته حرب العراق، يحدّث نفسه، الحرب لم ترحم أحداً، لم تفرق بين الجنسيات، طالت الفلسطينيين أيضاً في مخيماتهم وسط بغداد، قصفوا العديد من الأحياء الفلسطينية، وتمت مهاجمتهم في كثير من الأوقات، فرّ بعضهم من أماكن سكناه، وهُجّر بعضهم الآخر إلى الحدود العراقية الأردنية، تقطعت بهم السبل، علقوا على الحدود ومنعوا من دخول الأردن، عاد الكثير منهم إلى بغداد بسبب الظروف المعاشية القاسية، بينما أقام بعضهم في مخيم الرويشد وسط الصحراء.. تنفلت نظرات السائق عن مرآته العاكسة، ينظر إلى أطفال المخيم وهم يتراكضون خلف كرة من القماش وسط زوبعة من الرمال، وينطلق بالحافلة مبتعداً عن نقطة حدود الكرامة، يلاحق الغروب.

مالت الشمس واختفت أشعتها الحمراء خلف الشفق، راحت أضواء السيارات ترسم حدود الشارع بحافتيه، وتتناثر في المسافات البعيدة.. السائق يصارع المقود، والحافلة تقترب من مدينة الزرقاء، ينقل السائق بصره بين الشارع والمرآة، لا يرى فيها إلا كتلاً من الأجساد البشرية، ووجوهاً منهكة تستطلع وتتأفف.. تحركت الحافلة بسرعة شديدة واضطربت، مرت لحظة خاطفة شعر جلال خلالها أنه يندفع في

الظلام داخل فراغ مغلق، أحس كما لو كان يطفو على ارتفاع عشرة أقدام فوق الطريق، ويرتطم جسده بالأرض، سمع أصوات أناس يصرخون ويستغيثون، وشاهد أحد الركاب يزحف بين مقاعد الحافلة يبدو عليه الذهول، تراءى له بعضهم يقترب منه، ويحاول مساعدته في الخروج من الحافلة، كان يتابع محاولاتهم لإخراج جسده من بين حطام وقضبان المقاعد، وعلى ضوء أنوار السيارات التي توقفت في المكان، رأى كيف تلتوي ساقاه، وكيف تتناثر بعض الجثث في الشارع العريض، حاول أن يتكلم مع الناس المحيطين بجسده، لكن أحداً منهم لم يسمعه، أخذ يصرخ، اتركوني لحالي، لا تتجمعوا حول جسدي.. حاول أن يمسك أيديهم ويبعدها عن ساقيه، لكن دون جدوى، لم يكن يدري أين يمضي، وماذا يفعل، شعر أنه يلمس أيديهم بالفعل، ولم يكن يعرف هل تنفذ يده داخل أيديهم أم تنزلق حولها!

في المستشفى يصحو جلال، يحاول جاهداً استعادة ما حدث معه، يتذكر أن حركة دائبة كانت تجري حوله، أشخاص يهرولون، يبتعدون ويقتربون، يقفون حوله، كان جامداً، لكنه يشعر أنه ما زال على قيد الحياة، ودّ لو يستطيع أن يتحدث معهم، لكن الصوت احتبس في حنجرته، شاهد بأم عينيه كل الأعزاء يلتفون حوله، حاول يائساً أن يقوم بإشارة، لكن لا شيء في جسده تحرك، وفي تلك اللحظة صار ينظر إلى الشخص فيعرف بماذا يفكر، قبل أن ينطق، كان الأمر أقرب إلى

إدراك ما يفكرون به، وكان يستطيع أن يلتقط رسائلهم قبل أن يفتحوا أفواههم بثوان للنطق بها.

مثل ما يحدث مع الكاميرا التي تستطيع بحركة سريعة وخاطفة أن تصل إلى أدق وأصغر جزئية من المشهد، كان يحدث مع جلال، شعر ساعتها أنه يستطيع أن يرى أي شيء يحدث في العالم لو أراد ذلك.

يذكر أنه شعر بومضة ألم خاطفة، ثم تلاشى الألم، فجأة أحس وكأن الزمن توقف تماماً، وأنه انفصل عن جسده، وعن الباقين، بدأ يشعر بالأشياء التي حوله تبتعد عنه أكثر فأكثر، اختفى كل شيء، أحس بشعور من يطير في فضاء مظلم واسع، وهو ينظر إلى جسده عن بعد، بدأ يرتفع إلى أعلى ببطء، رأى المزيد من الممرضات يقبلن مسرعات إلى حجرته، كما تراءى له ياسمين تلج غرفته مسرعة وأحد الأطباء يتبعها، كان جسمه ممدداً على السرير، يظهر واضحاً بكل تفاصيله، إصابة مباشرة في الجمجمة، كسر في ساقه الأيسر، جروح ودماء ورضوض، كدمات زرقاء على الجلد.. دفع أحد الممرضين جهازاً إلى داخل الحجرة، وراح الأطباء يسلطون الصدمات الكهربائية على صدره، ومع كل صدمة كان من مكانه في الأعلى يرى جسده ينتفض قافزاً فوق السرير، ويسمع قرقعة عظامه، حدث له ما يشبه السحر، أحس بجسده يندفع بسرعة جنونية في فراغ مظلم أشبه بالنفق، وياسمين تحاول إيقافه، مع

وجودها كان يشعر بدفء وراحة كاملة، ويذكر أنه قال لنفسه تلك اللحظة "لا بد أنني قد مت".

يستند جلال على وسادته في سريره الأبيض، يقلب ناظريه يميناً ويساراً، وهو شبه نائم، تتراءى له ثياب بيض بوجوه باهتة تتحلّق حوله، ينظر إلى السقف، يغمض عينيه ويعصر ذاكرته، يستعيد بعض ما حصل معه، وما شاهد أثناء غيبوبته التي لا يعرف كم دامت، يتذكر أنه شعر بضوء نوراني شديد الالتماع فجأة، أخذ في النمو والانتشار كلما اقترب منه، أحس بالنور يسأله ما إذا كان مستعداً للموت، وطلب منه أن يعرض عليه ما فعل وما حدث خلال حياته.. فجأة وجد نفسه يتابع شريط حياته مذ كان طفلاً صغيراً، ثم مضت أحداث حياته في تتابع عاماً بعد آخر بشكل التماعات تتم في صور عقلية، يدركها بعقله مباشرة، ومع ذلك كانت تنبض بالحياة أكثر من الصور الحية، بدا الأمر أشبه بعرض فيلم سينمائي يجري بسرعة خرافية، ومع هذا كان قادراً على متابعة ما فيه، وتفهم ما يتضمنه.

يضيف جلال للطبيب الذي كان يتابع حالته الصحية، ويرصد قواه العقلية، أنه يصعب عليه أن يصف ما حدث له، فمشاهد حياته لم تكن تتعاقب واحدة بعد الأخرى في ترتيبها الزمني، لكنها كانت حية إلى أبعد درجة، كان الأمر كما لو كان يعيش هذه الحياة مرة أخرى، بالتجسيم والحركة، في زمن لا يزيد عن جزء من الثانية، كان يشعر

بأبهج المشاعر، سلام وراحة وهدوء شامل، أحس أنه ودع كل متاعبه بعد أن ساده إحساس بالتحرر، ولم يعد هناك أية آلام، سمع أحدهم كان موجوداً قريباً من الحادث يسأل "هل مات؟"، ثم سمع صوت شخص آخر يقول "نعم لقد مات".

في موته قيل له إن زلزالاً بقوة سبع درجات أصاب منطقة الشرق الأوسط، كان مركزه إحدى دول شمال إفريقيا القريبة من شواطئ فلسطين، تبعه موجات من المد التسونامي بثورات شعبية أقوى وأشد من الزلزال، ثوار وثورات أطاحت بعروش وغيّرت أنظمة، حطمت القصور، وأغرقت بؤر الفساد، ربيع عربي أخرج المدن والعواصم العربية من سباتها، وحرر شعوب المنطقة، جموع مثل قوم يأجوج ومأجوج انبثقوا فجأة من باطن الأرض كالإعصار، أعمار متفاوتة، شباب في ربيع العمر ومقتبل الحياة، بعضهم لم يبلغ الحلم بعد، بينهم سيدات وآنسات، شيوخ في السبعين أو فوق، ابيضت لحاهم، تسارعوا مثل السيل الجارف بنغمات مدوية وحناجر قوية، أهازيج من الغضب المنوّع والهدف الواحد.

طوابير نافرة في صفوف متراصة، تسارعت إلى الميادين والساحات العامة، نساء تسري زغاريدهن كالكهرباء، شباب عراة الصدور يحملون أكفانهم ويتقدمون الجماهير، يهتفون نعم للحرية والكرامة، لا للفساد، و"الأرض بتتكلم عربي".. الرصاص الحي يحاصرهم.. كتائب

مسلحة عمدت إلى قطع الكهرباء عن المدن والقرى، أوقفت سبل الاتصال، وقذفتهم دون توقف بالنيران، في الرؤوس، في الصدور.. تحولت المسيرات إلى جنازات طويلة، جنازات ولدت جنازات، زغاريد للشهداء، وتكبيرات بالنغمة المقدسة، الله أكبر، الله أكبر.

شباب قلبوا كل شيء، لم يبق شيء مكانه، تهدمت المصانع، تصدعت الطرق، سويت أبراج الكهرباء العالية بالأرض، ناطحات السحاب صارت ركاماً، اشتعلت النيران في الغاز والنفط ووقود السيارات، وقيل إن مفاعل ديمونة في دولة الاحتلال طمر تحت أنقاض الحمم البركانية التي تبعت الزلزال.

البحر الميت ارتفع وامتد ليصل بحيرة طبريا بالبحر الأحمر، مات الكثير من الناس.. انهارت دولة الاحتلال، ولم تعد لها قائمة، هجرها الصهاينة، وعادوا من حيث أتوا من بلاد الله الواسعة، وعاد الفلسطينيون من أرض الشتات إلى وطنهم أحراراً.

يستعيد جلال ما شاهده وكأنه واقع، تتراءى له الأحداث من جديد، يضيف (كنت أعي تماماً كل ما يجري حولي، أحسستُ فعلاً أني أتنفس وأنا أندفع نحو نفق مظلم، فجأة وأنا ألج النفق شيئاً فشيئاً، أحسست أني أعبر سحابة رمادية بدل النفق، سادني إحساس بفرح عجيب، وأنا اكتشف أني لست الوحيد في السحابة، وجدت جمعاً من

الناس حولي، كانوا جميعاً ممن عرفتهم في حياتي السابقة، من الأقارب والأصدقاء الذين ماتوا قبلي، كان يبدو عليهم السرور، كنت أرى وجوههم وأشعر بوجودهم، ظهر لي من بينهم والدي مثل قنديل وسط الضباب، اعترض طريقي وقال إنه توفي في سجنه منذ سنوات عديدة، وأضاف "عد يا جلال من حيث أتيت، فعملك على الأرض لم يكتمل بعد، عد الآن".. لم أكن أرغب في العودة، لكن الخيار لم يكن لي.. عشرات الآلاف من الشهداء بزغوا من باطن الأرض فجأة وأخذوا ينظرون إليّ، شموع وقناديل أرواح أضاءت المكان رغم الظلام وهبوب الرياح، نفير أبدي من وراء الموت، هتفوا بصوت واحد "لا تتوقف، واصل المسيرة، تجاوز الحدود وعد إلى وطنك".. كرر والدي دعوته.. "عد إلى وطنك يا ولدي حتى لا يضيع دم الشهداء هدراً.. الوطن ليس جواز سفر، الوطن انتماء ثقافي وحضاري وفكري، إنه ليس الاسم، إنه الهوية الحقيقية، تاريخ، كرامة، جينات متوارثة، مجموعة من المشاعر والأحلام والذكريات".

لا أذكر ما حصل لي بعد تلك اللحظة، يبدو أني غبت عن الوعي أو نمت، كانت لحظة مهيبة تفصل بين النور والظلام، تراءت لي ياسمين تجلس قربي كملاك على حافة السرير، ترتعش كأغصان شجرة بين الضباب، تنشج بحزن، تحتضن يدي بين يديها وتذرف الدموع، ولم أكن أعرف أكان ذلك حلماً أم وهماً أم حقيقة، كنت أراها في مشهد كالسراب

راكعة قرب جثتي، أذكر أنها كانت تصلي، تضيء كنجمة الصبح، كنت أسمع صوتها كما لو أني على قيد الحياة، كان يرن في أذني بطريقة غريبة، بلا صدى، كما لو كان يصدر من فم بلا حنجرة، على بعد أمتار عديدة، كنت على وشك الموت في السرير، لساني تحول إلى خرقة بالية لا تصلح حتى لمجرد ترطيب الشفاه، تبخر اللعاب واشتعلت النار في جوفي، عيناي غشيهما ضوءٌ أزرق ثقيل، ثم فقدت الوعي.. بعينين مغلقتين وليل ثقيل حاولتُ أن أتذكر اللحظات التي مررت بها، تفتتت الذكريات إلى آلاف الشظايا، تحولت الصور إلى ذبذبات مهزوزة لا يمكن التعرف عليها، أو على لحظاتها المعاشية، ضوء بعيد يضيء عتمة حياتي، ويستعيد بعض الذكريات من بوابة الموت، تقبلتُ فكرة الموت، فتحتُ عينيّ بخوف وارتياب وأغلقتهما استعداداً للموت من جديد وإلى الأبد، رأيتُ جسدي كاملاً على السرير، وحيداً بين الليل والموت، كلمة الموت لم تكن تخيفني أبداً، فقد تقبلتها منذ البداية كأمر محتوم، علمتني الأيام أن الموت ما هو إلا الخطوة الأولى لرحلة الحياة الأخيرة باتجاه الصمت.. كان العرق يبلل جسدي ويصهره مع الأغطية، فتحتُ عينيّ بصعوبة، درت بناظري أنحاء الغرفة، تراءت لي ياسمين جالسة على السرير تنشج من جديد، لم تحول بصرها عني لحظة واحدة، خُيل لي أنها انحنت فوقي لتضمد جرحاً أو تعالجه، فجأة أفقتُ لأجد نفسي داخل جسدي المادي في الأرض الكنعانية، وقد عادت فلسطين لأهلها،

تجمع شعب متعدد الأعراق والأجناس في دولة ديمقراطية، عاصمتها القدس مدينة السلام).

في فلسطين، "أضاف جلال" أنه رأى المسلمين والمسيحيين والدروز وجالية صغيرة ممن يدينون بدين موسى، يعيشون جنباً إلى جنب، ويتمتعون بدياناتهم السماوية بحرية كاملة، شعب لا ينتسب لجد واحد، لكن الكل اكتسب حق المواطنة.. ودولة فلسطين ودستورها كفلا حرية الدين والعبادة لكل مواطن مهما كان مذهبه ومعتقده، ولم يحدث مطلقاً أن جرت صدامات دينية أو طائفية بينهم، فكل طائفة تحترم معتقدات الأخرى، كما لو إن هذه الدولة علمانية، يمارس فيها كل فرد المعتقد الذي يريد.

فيها جامعات مستقلة نالت شهرة عالمية رائدة، مفتوحة بلا رسوم لأبناء الوطن المتفوقين.. المصانع مفتوحة لكل أبناء الشعب، لا يوجد عاطلون عن العمل، وكما وفرت الحكومة لكل عائلة مسكنها، فقد كفلت لأبنائها التأمين الصحي.. لها ثلاثة موانئ على البحر المتوسط، وأسطول من السفن التجارية تربط الشرق بالغرب.. وعلى الجانب الجنوبي من الشاطئ محطة توليد تعمل بالطاقة النووية في غزة، تتكون من محطة تحلية لمياه البحر، حلت مشكلة نقص المياه في مدن فلسطين، وتفيض بكميات كبيرة لتزيين المدن بزراعة الأشجار والزيتون والفواكه

وكافة المزروعات، ومحطة لتوليد الكهرباء لبّت الطلب العالي على الطاقة، وغذت المصانع الجديدة بحاجاتها.

إنه عام استقلال دولة فلسطين، "يضيف جلال"، الفلسطينيون يحتفلون باستقلال دولتهم، ويقال إن فلسطين لم تر ازدهاراً في تاريخها مثل هذا العام، الاحتفالات في أوجها، وقد أخذت طابعاً ابتهاجياً، وأخذت الفرق الشعبية تغني وتبتهج، ومدينة السلام لا تنام، أصبحت القدس عاصمة فلسطين أرخص مدينة للتسوق، بعد أن نجحت فيها سياسة الانفتاح على العالم، وصار السواح والزعماء ورجال الأعمال والسياسة يأتونها من كل صوب وحدب، يقضون بضع ليال، يستمتعون ويعقدون الصفقات التجارية، ثم يعودون دون سائل أو رقيب.. لا سجون ولا مساجين ولا مجرمين في فلسطين، ولا فساد في الدولة.

***

يتثاءب جلال ويفتح عينيه، يشاهد مجموعة من الأطباء والممرضين بثيابهم البيض، يتحلقون حول سريره، بعضهم يقف ويحمل أوراقاً بين يديه، وبعضهم الآخر يرقبه ويسجل حالته الصحية، يسمع أحدهم يقول لزميله: حالته الآن مستقرة.. ويقول آخر: كانت إصابته بليغة، وأعتقد أن هذا سبب هذيانه..

يجول جلال بناظريه فيمن حوله من جديد، يبحث عن ياسمين التي تراءت له أثناء غيبوبته، لم يرها بينهم.. تبدو في عيونهم الدهشة وأحد الأطباء يشخّص حالته المرضية قائلاً "هذا المريض لا يعرف كم لبث غارقاً في غيبوبته، كحالة من يتحركون أثناء نومهم وكأنهم أيقاظ، حتى إذا أفاقوا حسبوا أن ما عاشوا فيه وشاهدوه كان واقعاً، وإن كان وهماً لم يستغرق إلا قليلاً.. تلك الظاهرة تفقد فيها الحواس وظائفها الطبيعية الدقيقة.. دعوه يستريح الآن، لقد كتب الله له عمراً جديداً، وسنعاود الكشف عليه بعد أربع وعشرين ساعة".

يرفع جلال رأسه ويحدق في الأطباء، يتداعى إلى ذهنه أنهم يشفقون عليه، ويعتقدون أنه فقد ذاكرته، يستوقفهم ويقول "لا أدري بماذا تفكرون! لكني أؤكد لكم أني كنت في فلسطين، وكان الناس يحتفلون بعيدهم الوطني، ونيل استقلالهم المجيد الذي انتزع بالدم من أنياب قوات الاحتلال، بعد سنوات طويلة من الكفاح والحصار والجوع.. لم يكن ما رأيته حلماً.. كان واقعاً، شاهدتُ فيه العالم العربي وقد تحول إلى عالم ديمقراطي حر، ثورات عمت الشعوب العربية، وجرى نزع المُلك من الرؤساء بطريقة مهينة، غير مسبوقة وسريعة جداً، تساقطت العروش أمام غضب الشعوب، خلعت رؤساءَها وبؤر الفساد التي سادت عشرات السنين، لم يكن هناك دول ولا رؤساء ولا حدود، رئيس واحد وعاصمة واحدة، القدس مدينة السلام، واحة آمنة يمارس

الناس فيها دياناتهم السماوية، ويسودها العدل والمساواة دون اعتبار للجنس أو الدين أو اللون أو المنصب أو الثروة أو العائلة والعشيرة.

مشاعر التجربة التي مررت بها، كانت أقوى من أن تضيع أو تنمحي من ذاكرتي، لقد بقيت معي بطريقة ما، ولن أنساها أبداً.. فلسطين هي الحلم الأول والأخير، وحلم العودة إلى مقدساتها لا زال محفوراً في الذاكرة".

***

إحساس غامض انتاب ياسمين أثناء عملها منذ أيام عدة، شعرت بالإرهاق، وقررت المبيت في المستشفى تلك الليلة، لم يغمض لها جفن، زعيق سيارات الإسعاف قبل منتصف الليل أقلق راحتها، اندفعت من غرفة الممرضات لتشاهد مجموعة من المصابين يتخبطون بدمائهم، إثر حادث انقلاب حافلة عراقية قرب مدينة الزرقاء.. تناست تعبها وراحت تعمل على مدار الساعة، غرقت في الدماء، وفي آهات الجرحى، خاضت حرباً ضروساً مع الأطباء في البتر والخياطة حتى ساعات الفجر، ومع ذلك لم تسأل أحداً عن اسمه أو جنسيته.. كان همها إطالة أنفاس المصابين ومساعدتهم على الصمود في وجه الموت.. من بين هذه الأكوام اللحمية المستترة داخل الملابس المدنية وقع نظرها على "جلال".. توقفت لحظة، أمعنت النظر ثانية، فركت عينيها لتبدد ما

خالجها من وهم وخيال، انتابها ذهول وتطلعت إليه بتوسل المحتضر.. "إنه هو"، وبلا وعي منها أومأت إلى ممرض أن ينتشله من بين المصابين ويضعه على طاولة العمليات.. شعرت بوميض أنفاسه ينزلق إليها بنعومة نسيم الفجر، أسرعت إلى الطبيب المناوب، توسلت إليه، ووقفت معه بدموعها وبخبرتها حتى أوقف النزيف وخاط الجروح، حاولت بكل قوتها أن تعيد له الحياة، كأنها تعيد الحياة لجسدها هي.. وفي غرفة العناية الحثيثة لم تغفل عنه لحظة، جلست بجانبه وأخذت ترقب أنفاسه حتى فتح عينيه.. راقصت أنفاس الحياة حنايا القلب على سرير أبيض بعد سنوات طويلة من الغربة، نظر إليها وانفرجت شفتاه، انفطر ثغره عن ابتسامة وضيئة تشبه عودة الروح، وبلا وعي منه همس "ياسمين"، وترقرقت عيناه بالدموع، ولم تدر ياسمين أهي دموع الفرح باللقاء، أم دموع اللحظات الأخيرة.. "ياسمين أحبك"، أطلقها مدوية من جوفه مع زفرات الروح، احتضنت يده بين يديها، وانحدرت من عينيها الدموع، أشرق وجهه، وفي دخيلته تمنى أن يسمع صوتها حتى لو كان في لحظات عمره الأخيرة.. وقبل أن تلفظ الكلمة التي طالما تمنى سماعها، انسدلت يده هاوية في الفراغ، وانفلت رأسه على الوسادة، عيناه تحدقان في وجهها، وياسمين في حالة من الذهول.. "أنا أنا.."، وهوت على جسده تبكيه بحرقة، جفت الحروف بين شفتيها، وانتابها

إحساس كمن دُفن في كثبان جليدية، رفعت رأسها واستسلمت لأصداء نحيبها على سريره، بينما غرق في غيبوبته من جديد.

تلك اللحظة، تمنت ياسمين لو يصحو جلال ثانية لحظة واحدة، ليرى يديها الحانيتين وهي تحاول لأم الجراح، ساعتها قد يتمسك بالحياة ويقاوم الموت، نسيت هروبه من حياتها، وما عادت تتذكر غير الحبيب الذي يغلفه دفء القلب، إنه جلال الذي حلمت به منذ طفولتها.. لم تتركه لحظة واحدة، ومع استعادة وعيه ثانية، استعاد قلبها دقاته بانتظام، فقامت من جانبه، وغادرت المستشفى طلباً للراحة، بعد أن طلبت من إحدى الممرضات أن تقوم على خدمته.

***

صباح أحد الأيام، دلف أحد الأطباء غرفة جلال ترافقه ممرضة تحمل جهازاً لقياس الضغط، جلست قبالته، مد لها جلال ذراعه ولم يتفوه بكلمة.. تشاغلت بقياس الضغط محاولة أن تخفي وجهها عن نظراته.. وبينما كان الطبيب يسجل ملاحظاته، أمعن جلال النظر في الجزء الجانبي الظاهر من وجه الممرضة، حاول أن يستجمع تفاصيل الملامح، لون البشرة، صورة ياسمين ما زالت عالقة على شاشة ذاكرته، تأكد إنها هي، اعتدل في جلسته وقال "ياسمين".. باغتته المفاجأة عندما نظرت إليه مباشرة، أفلتت نفسها من نظراته ومسحت دمعة غسلت

خديها، دمعتها بدت مثل قطرة ندى على طرف زهرة ذابت مع شعاع الفجر، شعر أن عينيها مهده وفراشه ومثواه.. قالت: الحمد لله أنك عدت للحياة من جديد..

- قدرة الله أعادتني للحياة لأراك بعد هذه السنوات.. قال.

وضعت راحتها على فمه وقاطعته: اهدأ الآن، هذا يضر بصحتك..

ابتسم الطبيب وقال "لا تخافي على صحة قريبك، صارت أحسن من صحتي"، وأضاف لجلال "ياسمين سهرتْ طوال الليالي من أجلك وأنت غائب عن الوعي".. وخرج من الغرفة.

لدقيقة ساد الصمت بينهما، تراءت له ياسمين بصورة ضبابية أثناء إصابته، تجلس على سريره وتحتضن يده بين يديها، تدفعه للحياة وتذرف الدموع.. اندفع شلال أحاسيسه وأغرقه في محيط مياه خضّرت صحراء حياته اليابسة، نسي إصابته وجراحه، وسلّط ناظريه على أصابعها، ليرى ما إذا كانت تلبس خاتم خطوبة أو زواج.. قطعت ياسمين حبل أفكاره وقالت: لا تهتم لكلام الطبيب، فأنا ممرضة في المستشفى منذ أكثر من عام، كانت إصابتك خطيرة، ومن واجبي أن أقوم على خدمة المرضى.

نظر في وجهها وقال: لم يهدأ لي بال منذ أن عرفت أنك تركت البيت بعد وفاة والدك.. طيفك ظل يلازمني في غربتي وضياعي، حتى أثناء إصابتي لم تفارقي خيالي لحظة واحدة..

وقفتْ، حملتْ جهاز الضغط وقالت: لا فائدة من هذا الكلام.. انتبه لصحتك، وحاول أن تنام.. وخرجت بعد أن تركته يتخبط في أفكاره.

صباح اليوم التالي، دلفت ياسمين حجرته وبرفقتها والدته وشقيقته، فاجأته بزيارتها، قالت إنها لم تخبرهما بوجوده في المستشفى إلا بعد أن استعاد صحته.. عاتبتها جليلة على فعلتها، واحتضنت ولدها جلالاً بين ذراعيها، بكت، ألقى برأسه على صدرها وذرف الدموع أيضاً.. جلست على سريره، وراحت تنظر إليه وكأنها لم تره من قبل، ثم طلبت منه أن يحكي لها بالتفصيل الممل قصته التي انتهت بدخوله المستشفى، حتى شافاه وعافاه الله.. وما بين جملة وأخرى تقاطعه وتدعو له بالشفاء العاجل، ولم تنس أن تزف له خبر حصولها على تصريح سفر إلى الضفة الغربية بمساعدة أخيها المقيم في مخيم قلنديا، وأضافت إنه يقوم بإجراء معاملة "لمّ الشمل" للإقامة الدائمة في الضفة، ولم يبق غير موافقة السلطات المختصة بجمع الشمل والعودة إلى أرض اللبن والعسل، لتزور والده ناجي، وتتدبر أمر خروجه من السجن.. أما شقيقته نبيلة التي كانت جالسة على مقعد قبالته، فقد أخفت ما في صدرها عندما سألها جلال عن حالها وحال ابنتيها وزوجها، وقالت "الحمد لله، أنا راضية بما قسمه الله لي، لا تجهد نفسك بأمري"، ولم

تستطع أن تخفي الدموع من عينيها وهي تنظر إليه، وتستعيد قصة حياتها مع زوجها.

***

بعد أن تجاوزت نبيلة عامها الثامن عشر، واجتازت الثانوية العامة بنجاح في مدارس الوكالة، شعرت أنها مقصوصة الأجنحة، أحلامها كانت كبيرة، وتأمل بمواصلة دراستها الجامعية، إلا أن الظروف المادية قلصت تلك الأحلام وحاصرت أفكارها، فلم يكن بمقدور والدتها تحمّل الأقساط الجامعية التي لا قبل لها عليها.. كبلها الواقع والضغوط اليومية، وأصبح المستقبل بالنسبة لها كلمة رمادية، كانت تعيش الحاضر وتصارع خيالات المستقبل.. بدا كل شيء في حياتها كما لو أنها ولدت يتيمة، رغم أن والدتها بذلت جهداً كبيراً في تربيتها أحسن تربية، كيف لا وهي وحيدتها، أخذت من والدتها هدوءها ورجاحة عقلها، وصفاء بشرتها، كما ورثت عن والدها لونه الحنطي وقامته المتوسطة، لون عينيه العسليتين، والصبر على المصاعب.

بعد الثانوية العامة، شعرت نبيلة أنها صارت عبئاً ثقيلاً يُرهق كاهل والدتها، وهي تراها تعاني من الفاقة، باعت والدتها مصاغها قطعة قطعة لتساعد ابنها جلال، بعد التحاقه بجامعة بيروت لمتابعة دراسته، بدت نبيلة وحيدة ومنكسرة، كأنها المخلوق الوحيد على سطح الأرض،

انزوت في البيت لا ترى أحداً، ولا تتحدث مع والدتها إلا ما ندر من الكلام، ومع ذلك وقفت مع والدتها سنوات عديدة تواجهان صعوبة الحياة التي كشرت لهما عن أنيابها، أثناء غياب جلال عن البيت.. مما دفعها إلى أن تتعلق بأول عريس تقدم لخطبتها قبل أن يفوتها القطار "كما يقول المثل".

كان ابن الجيران يعمل سائقاً على شاحنة يملكها والده، لم يتبادلا كلاماً عن الحب والمستقبل، لكنه ملأ قلبها بالآمال والأحلام والاستقرار، في ظل بيت مكون من غرفة واحدة ومطبخ ودورة مياه مشتركة، مع أسرة والده المكونة من سبعة أفراد.. ومع أنها رضيت بهذا الواقع، وأقنعت نفسها أن الفقر ليس بعيب، وأن الله قادر على تغيير الأحوال من حال إلى حال، إلا أنها وبعد مرور عام واحد على زواجها، باتت تحب زوجها بخوف، وتعيش حياتها بخوف.

لم يحقق لها وعوده بالآمال والأحلام، اختلط الماضي بالحاضر، وضاع المستقبل.

أعوام أربعة مرت بحلوها ومرها، وقفت نبيلة جانب زوجها وساعدته حتى استطاع الوقوف على قدميه، وانسابت النقود بين يديه، أنجبت خلالها طفلة تشبه والدتها، وفي بداية العام الخامس استأجر زوجها بيتاً بعيداً عن بيت أبيه، وابتاع له شاحنة جديدة.

لم تمض أشهر قليلة من ذلك العام حتى أنجبت نبيلة طفلة ثانية.. اكفهر وجه زوجها، وصار يهجر بيت الزوجية أياماً طويلة، وحين يرجع إلى البيت بعد أنصاف الليالي، يعود برائحة كريهة، يقول إنه منهك، وينام في غرفة منفصلة.

بحاسة المرأة وغريزتها التي لا تخيب، اشتمت نبيلة ذات ليلة رائحة امرأة أخرى في حياة زوجها، عاتبته في البداية، وفي النهاية ثارت عليه، قالت له "أريدك لي فقط، كما أنا لك وحدك، لكن لا تترك البيت، ثر واغضب وهددني إذا رأيت فيّ اعوجاجاً، لكن لا تتركني أبحث هنا وهناك عنك".. يتجهم وجه زوجها ويمضي أياماً جديدة، كانت تعرف أنه يتمرغ في أحضان امرأة أخرى أثناء غيابه عن البيت، لكنها كتمت ما في أعماقها، ولم تبح له بمعرفتها بالأمر، آملة أن يعود إلى عشه الدافئ الذي هيأته له منذ سنوات عدة..

كانت تنظر إليه وتفكر بالذي يخفيه في ذاكرته، تسمعه بحواسها وتكاد تصرخ، "ما عدت أفهمك، أنت ابتعدت كثيراً عني وعن ابنتيك، أنت تغيرت، أعرف أنك تحب الأولاد الذكور، لكن هذه إرادة الله"، وفي غرفتها تذرف دموعاً ساخنة، وتتساءل إذا كان يحبها أم أنها النهاية، وهل من الضروري أن تنجب المرأة لزوجها مولوداً ذكراً حتى تستمر الحياة الزوجية، ولا يتحول الزواج مع مرور الأيام إلى عبودية أو هجران!

في البداية كان يأتيها مأسوراً، مستعدا لتلبية كل طلباتها الأسرية، أما في الأيام الأخيرة، فلم تعد تراه إلا نادراً، وحين ضبطها ذات مساء متلبسة بالرحيل مع ابنتيه عائدة إلى بيت والدتها، تغير لونه ورجاها ألا ترحل عن البيت، واعترف قائلاً إنه لا يدري كيف تزوج من امرأة ثانية، ولامها أنها ابتعدت عنه كثيراً حين راحت تمضي كل أوقاتها مع ابنتيها، ولم تعد تهتم به أو تلبي رغباته.. صرخت في وجهه وقالت "هل هي أجمل مني؟ اذهب إليها إذا كنت تجد سعادتك عندها، لكن لا تفتعل المشاكل وتحملني نتائجها، كنت خادمة لك طوال السنين التي مضت، ومع ذلك كافأتني بامرأة أخرى، اذهب إليها ودعني أعيش حياتي مع ابنتيّ".

قصة الزوجة الثانية بدأت، وباتت نبيلة تترقب نهاية حياتها الزوجية، اختصرتها الأقدار في لحظة غدر وغضب، ولم يكن للعقل مكان.. في لحظة غضب وانفعال خلفت حكايتها دموعاً وجروحاً، وطفلتين لم يرحمهما والدهما عندما ألقى بيمين الطلاق على والدتهما.

تحول اللون الرمادي في عيني نبيلة إلى لون قاتم.. عزلت زوجها من دائرة تفكيرها، وذابت في متاهات الذكريات في بيت والدتها، لم يسأل عنها، وراحت تكرس جل وقتها لابنتيها، وتنتظر إنساناً يحتاج الحب، يتلهف لزوجة حانية يحتمي في صدرها من عذاباته، لا ليمارس عليها غطرسته وهجرانه، ورائحة امرأة أخرى في ثيابها.

مع متطلبات ابنتيها، راحت نبيلة تبحث عن عمل أو وظيفة تعادل شهادتها المتواضعة، وقبل أكثر من عام التحقت بوظيفة متواضعة، وبدأت تعيش على أمل لها في شيء من مباهج الحياة، وعلى قدر استطاعتها، كانت تقضي الشهر بين التدبير خوفاً من العوز.. وحين تعود بعد عملها، لا تجد غير الجدران الرطبة والفراش الأصم في انتظارها.

تلك الليلة، ونبيلة تقص قصة حياتها على مسامع جلال، غرق جلال في متاهات شقيقته التي يعرفها ولا يعرفها، وجد نفسه يخوض معركة جديدة من معارك الحياة الوعرة.. ومع ذلك، طمأن شقيقته، ووعدها أن يتدبر أمرها، وأضاف أنه حال استقرار وضعه، سيقيم دعوى قضائية على زوجها، ويلزمه بمصاريفها ومصاريف ابنتيه.

***

شأن أي ممرضة تعمل في المستشفى، تكررت زيارات ياسمين لجلال، وكثيراً ما كانت تلجمه عندما يتحدث عن الماضي، وتسرع في الخروج من غرفته، وحين تماثل للشفاء طلب منها الجلوس للتحدث معها بأمر يهمهما معاً.. سألته: ماذا تعمل هذه الأيام.

لم يتوقع سؤالها، كما لم يقل لها "لا شيء"، قال: مراسل، كنت مراسلاً صحفياً في العراق.

قالت أوه.. قاطعها: أنا لا أسميه عملاً، المراسل مهنة تضاهي القتال، أكون حيث يكون المقاتل، إنه مصير.. لقد وهبت نفسي لهذه المهنة في سبيل المستقبل، ربما لأنني محزون ومملوء الوجدان بالغربة والشتات والحلم بالعودة.

- كلنا كذلك.. منذ طفولتنا ونحن نحلم بالعودة، يا ترى متى تنطلق مسيرة العودة؟. تساءلت.

تجهم وجهه، نظر إلى النافذة وقال: تنطلق مسيرة العودة عندما نحرر الوطن.

- ومتى نحرر الوطن؟ سألته.
- عندما تكتمل وحدة الشعب.
- ومتى تكتمل وحدة الشعب؟
- تقول الصحف إن الوحدة ستكتمل قريباً.
- ومنذ متى تقول هذه الصحف إن الوحدة ستكتمل؟.

ابتسم وقال: منذ أن كان لأبي أرض في فلسطين يملكها ويفلحها.

- وماذا حصل لهذه الأرض!؟. سألته ثانية.
- احتلها الصهاينة وطردوه منها.
- وماذا فعل أبوك!؟
- سيموت كمداً في سجنه وهو ينتظر مسيرة العودة.

- وأنت ماذا فعلتَ من أجل أبيك وأرضه!؟.

صمت لحظة، غرس عينيه الخجولتين في الأرض، عادته عندما لا يجد إجابة.. شعر بمرارة ويأس، تقاطعت الأفكار في رأسه وألجمه السؤال، تساءل في قرار نفسه "حقاً ماذا فعل من أجل أبيه!؟، هل حاول الوصول إليه أو زيارته!، حتى الرجل الذي وشى به لم يستطع الوصول إليه.. وأرض أبيه وأجداده، ماذا فعل من أجلها!؟، هل حمل السلاح لاستردادها!، حملة السلاح والجيوش خسروا الأرض عام النكبة، وبدل أن يستردوا جزءاً منها في حرب حزيران، خسروا بقية الوطن.. كدّسوا الأسلحة في الصناديق وقالوا "صامدون"، حتى السلاح المحمول على الأكتاف استبدلوا به الحجارة والانتفاضات السلمية، راحوا ينتظرون المفاوضات، ويلاحقون أوسلو التي أحدثت شرخاً بينهم".. شعر أن أسئلة عقيمة بلا أجوبة تدور في رأسه.. برم من سؤال ياسمينه وتجاهل الإجابة، قال: هذا ليس موضوعي الذي طلبتك من أجله.. قاطعته:

- أنت مصاب وتنتظر ما كان ينتظره أبوك منذ كان له أرض.. إنك تغامر بمستقبلك في ساحات الحرب، عد إلى وطنك الذي حلمت به طوال وقت إصابتك وغيبوبتك واكتب عنه، لم يعد هناك وقت للانتظار، فالأنهار كلما ابتعدت عن أثداء منابعها، خف جريانها،

وتباطأت في حركتها، تجري في المنخفضات وتبحث عن مصب تلقي نفسها فيه وتموت، عد إلى وطنك ودع العالم يسمع صوتك من هناك.

صمْتٌ ثقيل مشبع بقسوة الغربة خيّم على قلب جلال، شعر بحزن عميق آت من مخابئ الذكريات، قال: سنتحدث في هذا الموضوع فيما بعد، أنا طلبتك من أجل موضوع آخر..

- كنت أعتقد أن هذا الموضوع المهم في حياتك، فأنت لم تتحدث أثناء إصابتك إلا عن العودة إلى فلسطين.

- أنتِ وفلسطين سيان في قلبي، ورغبتي أن تكوني شريكة حياتي.

نظرت إلى وجهه مباشرة وقالت: أهذا ما طلبتني من أجله! لقد تأخرت كثيراً، وأنا وهبتُ حياتي لتضميد الجراح.

- بحثتُ عنك كثيراً ولم أجدك. قال.

نظرت باستحياء إلى جانب السرير وقالت: أرجوك..

قاطعها: أرجوك أنتِ، ما زال بوسعك أن تجعلي من الحلم حقيقة، ومهما كان الأمر يجب ألا نمنع أنفسنا من الاستمرار في الحلم، وإلا ماتت الروح فينا وفقدنا الأمل في المستقبل.

أسبلت جفنيها وتورّد خداها، ابتسمت وقالت: ألا توافقني أن هذا المكان للعمل!.. وأضافت وهي تنهض عن كرسيها بأنها على عجل، فعاد يحاور طيفها.

راحة عجيبة تسربت إلى جسد جلال تلك الليلة، شعر كمن وصل أخيراً إلى قمة جبل كان يتسلقه، ارتخت عضلات جسده، وسحبت معها جفنيه، أحس بحاجته إلى النوم العميق الذي لم يهنأ به منذ ولادته، وفي نفس اللحظة خالطه شعور بالسهر مع طيف ياسمينه، حبه الأول والوحيد في حياته، وكان لزاماً عليه أن يحرس ذلك الطيف طوال الليل.. وفي صباح اليوم التالي ارتدى ملابسه وغادر المستشفى.

***

مساء أحد الأيام، حطت رحال جلال مع والدته وشقيقته في بيت ياسمين، شعر أن ياسمينه استجمعت كل روائحها المخزونة في مواسمها الماضية، ونفثتها دفعة واحدة في حياته، اشتم رائحة زهر البرتقال والتمر حنة واليانسون والميرمية وكل عبير الأعشاب البرية في ثيابها، وجلس قبالتها في ركن جانبي يبث شوقه لها، وياسمين يتوهج فرط الرمان في وجنتيها، ويتفتح الدحنون على شفتيها، تتمايل على مقعدها، تسبل جفنيها وتحلق على بساط ريح قطني يطير بها إلى السماء السابعة.

أيام قليلة مرت، أعلنا بعدها خطوبتهما، بدت حياتهما كترنيمة أبدية، ومضيا معاً يبنيان قصوراً من الآمال، ويحلمان ببيت تزقزق على جانبيه

العصافير.. ولم يمض شهر حتى تم زفافهما وسط حفل عائلي، لم يحضره سوى بعض الأقارب والمعارف.

لم تكن المرة الأولى التي يرى فيها جلال ياسمينه، لكنه لم يتوقع أن تصبح عروساً جميلة كل هذا الجمال.. فما أن خلا الجو لهما، ووقع نظره عليها، حتى توقف وكأن جمالها قد صعقه، أطلق العنان لبصره، شاهدها بوضوح رؤية الرجل إلى المرأة.. أنثى بمعنى الكلمة، عينان ممتلئتان بسحر ألق لم يشهده من قبل، خليط من ألوان قوس قزح في يوم ربيعي، تناسق رائع من الألوان يسكن تلكما العينين، ونظرات فرح تنسكب في داخلهما بطريقة آسرة مدمرة، وبلا وعي أو إدراك منه، قال "يا حبيبتي"، وغمره نداء متدثر بالحب واللهفة.. أخذها بين ذراعيه، لفحت أنفاسه الدافئة وجهها، كان المطر يهطل بشدة، والمياه تتدفق عبر المزاريب كالسلاسل الثقيلة، أسرع يدفن رأسه في عنقها، ارتعش جسدها وهو يضمها إلى صدره في قوة وعنف، غمرته بنظراتها واحتوته داخل مقلتيها.. تناثرت قبلاته في نهم هستيري فوق شعرها وعنقها وأذنيها، حتى استقرت أخيراً فوق شفتيها، وكأنه يحاول أن يعانق فيهما الحياة بعد عودته من الموت.. احتضنها بشدة أكثر، كانت بين يديه كالحمل الوديع الذي لا يقدر بعد على الثغاء.. ولم يجرؤ على إطفاء النور، ولا على إغلاق عينيه.. كانا أشد التصاقاً الواحد منهما بالآخر تحت الضوء، وكان هناك الكثير مما يريدان قوله لأحدهما الآخر تحت

الفراش، لكنهما اختصرا كلماتهما، وهمس في أذنها "يا جنتي الخضراء"، وقالت وهي تضغط بجسدها على جسده "يا حبيبي".. وتلاطفا وهما يتعانقان بعيون مغلقة وأصابع مرتجفة، أصابع نصف نائمة ونصف ميتة، هلامية.. وراحت ساقاهما تترادفان تحت الغطاء، كأنهما مجذافان يضربان المياه المترقرقة في بحر لا قاع له.

***

ذات مساء، وبعد أكثر من عامين ونيّف من القطيعة الزوجية، دلف زوج نبيلة بيت والدتها بعينين حزينتين، ضعيفاً واهناً، تحدث طويلاً مع أخيها جلال ووالدتها وهو يرشف من كوب الشاي، كانت جليلة تحتضن حفيدها ناجي الذي أنجبته ياسمين قبل أكثر من عام، قبّلته من جبينه وقالت "إنه يشبه جده ناجي"، بينما كان زوج نبيلة يحتضن ابنتيه بين ذراعيه، قال إنه لا يدري كيف عاند قلبه وتزوج من امرأة ثانية، ثم نظر إلى نبيلة وطلب منها أن تغفر له زلته، قائلاً إنها نزوة شباب، وإنه على استعداد أن يصلح خطأه.. بدت نبيلة ضعيفة أمام نظرات زوجها وكلماته، فاعتذر ثانية وطلب من جلال أن يسمح لشقيقته بالعودة معه إلى البيت.

مثلما يفعل دائماً عندما يفكر بعمق، أرخى جلال جفنيه، بدت عيناه الصغيرتان كأنهما تحملان كل هموم العالم، قال إن الأمر يتعلق بشقيقته

نبيلة، ولن يملي عليها إرادته.. فجأة تحركت نبيلة في مقعدها، هجم الماضي إلى رأسها، وضاعت منها الإجابة، اضطربت وازدادت دقات قلبها، تمنت لو كان زوجها صادقاً، تلعثمت في إجابتها، وتشتت تفكيرها، تعود إليه!.. حدثت نفسها وقارنت "نار الزوج أم جنة الأهل"، هل ينطبق هذا المثل عليها؟.. عاجلاً أو آجلاً ستقاسي الوحدة والعذاب بعد فراق والدتها، واستقلال أخيها جلال في بيت الزوجية مع ياسمينه.. الرجل المتزوج ليس له غير أسرته، والزوجة ليس لها غير زوجها وأولادها.. وتساءلت "ما مصير طفلتيها إن لم تعد إلى زوجها! تعمل وتعيش حياتها بلا زوج!..

تشبثت بشعاع كلماته عن المستقبل، وتساءلت في قرار نفسها، هل أشرقت الشمس بعد عبوس!، أم فكّر زوجها في أمر القضاء والدعوى والمحاكم والمصاريف المترتبة على ذلك؟.. وجدت نفسها أسيرة أفكارها، وهربت بذاكرتها نحو الأمان في بيت الزوجية حتى لو كان زائفاً، شعرت أنها تتشبث به وسط أمواجه العاتية، كانت بحاجته، ولم يكن أمامها غير التشبث ولو بشعاع بسيط من أمل.. قطع زوجها حبل أفكارها واستعجلها في الإجابة، نظرت إليه وتساءلت ثانية إذا كان قد عرف معنى الحياة الزوجية بعد هذه القطيعة!، وأردفت في أعماقها "وهل كل زواج يُبنى على الحب؟"، ولا تدري كيف أصدرت أوامر مشددة لنفسها بتوقف الحوار الداخلي، ومصادرة رؤاها الخاصة، لتنهي

بسرعة هذه المهمة التي جاء من أجلها، وتنتقل إلى الإجابة الصريحة، "أعود إليه، أعلمه معنى الحب وكيف يحب الحياة الأسرية، وأتعلم السباحة في أمواجه المتلاطمة، وليحدث ما يحدث".

مساء تلك الليلة عادت نبيلة إلى بيت زوجها، اعتقدت أنها أنقذت نفسها من الغرق، ولا تدري أنها غرقت في بحر كوابيسه من جديد، بعد أن اكتشفت أنه لم يطلق زوجته الثانية.. ومع أنها رضيت بالأمر الواقع، إلا أنها وجدت نفسها تعيش الحياة على أمل هزيمة الفجر لظلام الليل، والصبر حتى تشرق الشمس في حياتها من جديد.

***

جراح وطن

أخيراً، وبعد ثلاث سنوات من الانتظار، وافقت السلطات المختصة على طلب جليلة بلمّ الشمل والعودة إلى الضفة الغربية، عرفت ذلك من أخيها الذي اتصل بها هاتفياً، وقال إنه أرسل لها الأوراق وتصاريح السفر، وينتظر قدومها مع جلال وزوجه بفارغ الصبر.

لم تنتظر جليلة، فما أن وصلت الأوراق حتى حزمت أمرها، رتبت أمورها، واستعدت للسفر، ومنذ المساء وصلت نبيلة مع ابنتيها لوداع والدتها وأخيها وزوجه.. قالت لهم ألا يقلقوا عليها، وأضافت إنها تعودت على طباع زوجها، وتأقلمت مع وجود الزوجة الثانية، وتعيش حياتها مثل بقية الناس.

عند الفجر، وقبل أن تصعد جليلة في السيارة التي ستقلها إلى الجسر، اندفعت نبيلة إلى والدتها، احتضنتها وقبلتها، وراحت تبكي بكاء مراً، قالت جليلة وهي تمسح دموع ابنتها بمنديل تحتفظ به منذ يوم زفافها من ناجي "لا تبكِ يا حبيبتي، سنلتقي قريباً بإذن الله في فلسطين، فأنتِ ابنتي الغالية التي لا غنى لي عنها.. وإذا كنت أفارقك بعد هذه السنين، فليس معنى ذلك أن أتركك وحدك تجابهين مصاعب الحياة..

خذي يا حبيبتي مفتاح البيت، وتصرفي بحاجاته كما تشائين، ساعدي نفسك على الحياة في ظل زوجك، خذي كل شيء يا ابنتي، فأنا لا أحتاج من الدنيا غير أن أراك سعيدة".

نظرت نبيلة إلى المنديل الذي بين يدي والدتها وقالت: يكفيني هذا يا أمي، سأحتفظ به لأنه من أثرك وأثر أبي، قبّلي أبي نيابة عني وقولي له ألا يقلق عليّ.. ومسحت دموعها وهي تحتضن والدتها بين ذراعيها، ثم رفعت رأسها ونظرت إلى وجهها، وكأنها لن تراها بعد تلك اللحظة.

مسحت جليلة دموع ابنتها براحة يدها، واندفعت إلى مقعد السيارة الخلفي تحتضن حفيدها ناجي الذي بلغ الثانية من عمره، وجلست ياسمين التي اقترب موعد ولادتها بمولود ثان جانبها في المقعد، أما جلال فقد جلس في المقعد الأمامي.. وقبل أن يهدر محرك السيارة تناول السائق أحد أشرطة الكاسيت وألقمه المسجل، وعلى وقع أغنية فيروز وهي تغني "راجعون".. انطلقت السيارة تشق طريقها نحو الغرب..

"بلادي يمر عليها مع الفجر لحني الوجيع..

بلادي أعدني إليها ولو زهرة يا ربيع"..

شعر جلال بخفقان قلبه، وهو يستعيد في ذاكرته طفولته في أرض الأحلام، دغدغته أحلام العودة التي لم تذبل طوال حياته وراح يسابق الزمن لرؤية الأرض الموعودة، زيارة القدس والصلاة في المسجد

الأقصى.. ولم تكن حرارة فراق مخيم البقعة ذات أهمية بقدر ما كان يحرقه الشوق إلى العودة، لينتقم ممن وشى بوالده، ويقاوم المحتل الذي سلب أرضه، وشرده لسنين طويلة خارج وطنه.

***

كالأفعى، تراءى لجلال نهر الأردن من على بُعد، ينساب مع شروق الشمس وسط شريط أخضر من البساتين والمزروعات الصيفية، يرتمي في حضن البحر الميت، وصوت فيروز يخترق جنبات القلب..

" ذقنا الهول وذقنا الليل بدون طعام..
إن البرد كسانا، اشتد فأين ننام..
وبيتنا الحبيب يسكنه غريب.. ونحن لاجئون في الخيام..
في الأمطار راجعون، في الإعصار راجعون..
بالإيمان راجعون، للأوطان راجعون" ..

لم تتجاوز المسافة التي قطعتها السيارة ساعة زمن، انحدرت من فوق مرتفعات السلط، وراحت تهبط عبر طرق متعرجة نحو غور الأردن، وعلى مسافة قريبة بدا لهم جسر العودة.

قبل الجسر بعشرات الأمتار، وفي موقف للسيارات، توقفت السيارة، قال السائق "أستودعكم السلامة، هذا آخر ما يُسمح لنا بالوصول إليه".. خفق قلب جلال بعنف، ترجل السائق وفتح

صندوق السيارة الخلفي، أنزل الحقائب في قاعة المسافرين، القاعة تغص بالمسافرين من كل الأعمار، نسبة كبيرة منهم أمهات مع أطفالهن، درجة الحرارة مرتفعة رغم أن الساعة لم تتجاوز الثامنة صباحاً، الذباب يملأ المكان ولا يكف عن الحركة والدوران، مسبباً إزعاجاً كبيراً للمسافرين، صفوف طويلة تنتظر الحافلة التي ستنقل الركاب من نقطة الحدود الأردنية إلى الحدود الأخرى، وفيروز تصدح على أسماعهم لجسر العودة..

" يا جسر الأحزان أنا سميتك جسر العودة..
العائر ينهض، النازح يرجع، والمنتظرون يعودون،
وشرّيد الخيمة يرجع..
أرجع في العتمة معهم، نصمد ونقاتل ولا نرحل..
ونقيم كشجر لا يرحل" ..

تنهد جلال وكاد الدمع يطفر من عينيه، وتنفس المسافرون الصعداء عندما ظهرت الحافلة واقتربت نحوهم، بدأ المسافرون في التدافع الشديد لحجز مقاعد على الحافلة، الفوضى تعم المكان، والكل يريد أن يصل قبل الآخر، لا أحد يشعر بالأمان، ففي أي لحظة ولأي سبب، ودون سابق إنذار، يمكن أن يُغلق الجسر ويبقوا عالقين، "قال أحد المسافرين"، وأضاف أنه يريد أن يصل بيته بسرعة، فالحواجز العسكرية المتعددة على الطريق قد تعيقه حتى ساعة متأخرة.

بصعوبة استطاع جلال نقل الحقائب إلى خزانة الحافلة، ووالدته تمسك ولده ناجي بيدها وتحاول الصعود إلى الحافلة لتحجز بعض المقاعد، بدت ياسمين تعبة، وراح العرق يتصبب من جميع أنحاء جسدها، بلل أيضاً بعض أجزاء من جلبابها الأسود الطويل، أسفل عنقها وتحت إبطيها، وجدت لها مقعداً في مؤخرة الحافلة قرب جليلة، تهالكت على المقعد وبدت في أشد حالاتها إرهاقاً.. وقبل أن تستريح في مقعدها، توقف الباص فوق الجسر، صعد عسكري أردني إلى الحافلة، وبدأ بالتدقيق في جوازات السفر، نظر جلال إلى النهر، مجرى بالكاد تتدفق فيه المياه، "حدث نفسه"، ومع ذلك خلدته مختلف الأديان والحضارات، يفصل الضفة الشرقية عن الغربية، ويرسم الحدود.. عادت ذاكرته إلى الوراء وراح يسترجع عبر مخيلته ما عاناه النازحون من ويلات أثناء مرورهم فوق الجسر في حرب حزيران.. صدى أغنية يلتمع في ذاكرته *"يا جسراً خشبياً يسبح فوق النهر"* .. تحركت الحافلة من جديد وقطعت استرسال أفكاره، اجتازت الجسر ودخلت الأراضي الفلسطينية، أخذ جلال يدندن بصوت خافت *"سلامي لكم يا أهل الأرض المحتلة..*

يا منزرعين بمنازلكم..
قلبي معكم وسلامي لكم" ..

توقفت الحافلة بعد مسافة قصيرة، صعد جندي غريب لا يتكلم اللغة العربية وأشار للركاب بالترجل من الحافلة، اقتربت مجموعة من الجنود، وبدأوا بتفتيش أسفل الحافلة من خلال أجهزة خاصة، بعدها دققوا في جوازات المسافرين واحداً بعد الآخر، ثم طلبوا منهم الصعود إلى الحافلة.

"المسافة بين نقطتي العبور لا تقاس بالأمتار، بل بعمليات الإذلال والتفتيش تحت أشعة الشمس الحارقة، وتستغرق ساعات طويلة.. الحرارة بدأت ترتفع، ورائحة العرق بدأت تفوح من الأجساد"، قال أحد المسافرين وهو يتأفف ويخلع قميصه الذي بلله العرق، وأضاف "أراهن أن درجة الحرارة تقترب من الثلاثين في الظل، فكيف تحت حرارة الشمس!؟".. فقال آخر "كيف لا ومنطقة الغور مقلاة فلسطين الملتهبة، أخفض منطقة في العالم!".

تتقدم الحافلة نحو حاجز عسكري جديد وتقف، يطلب أحد الجنود من الركاب الترجل ثانية وإنزال الحقائب، يترجّل الركاب ويتوجهون إلى قاعة كبيرة لختم جوازاتهم وتدقيق أوراقهم، يحتضن جلال ولده ويمشي بخطى ثقيلة بين والدته وزوجه، ومع بداية نقطة التفتيش الجديدة، يبدأ إحساس بالمهانة يتصاعد مع أنفاسه المتعبة، يمتزج بذل الانتظار والترقب والتوجس، وأحد الجنود يطلب من المسافرين التقدم واحداً بعد الآخر في صف منضبط..

"تصاريح"، يقول صاحب الخوذة الموسومة بخط أبيض، وشريط أحمر على ذراعه بلون وجهه الغريب، يخيم الصمت على الجميع، بينما تمتد أيديهم بأوراق زرق وخضر وصفر.. يدقق الوجه الغريب، يستفسر بلغة ثقيلة، تتكدس الأوراق في يده، يدقق جلال في وجهه أيضاً، يتساءل، يا ترى من أي أرض وصل هذه البلاد؟، وأي عائلة شرّدها ليغتصب ممتلكاتها ويستوطن بيتها؟.

في ممر طويل وسط القاعة، فصلوا الرجال عن النساء، وفي غرفة جانبية بدأت عملية التحقيق والتفتيش ومراجعة ملف كل قادم على الكمبيوتر، ملف خاص لكل فرد، يسجل كل شيء عنه، عن تحركاته وأفكاره وأعماله، منذ أن ولد إلى يوم وصوله الجسر، يكفي تسجيل رقمه الوطني أو رقم بطاقته أو بصمته حتى تظهر قصة حياة الفرد كاملة.

شبابيك غرفة الكمبيوتر عبارة عن فتحات صغيرة تعلوها مرآة ضخمة، عكست المرآة صورة جلال بشكل مشوه، لم يستطع أن يرى ماذا يوجد خلفها، خمن أن العسكري الذي يقف خلفها يشاهده بوضوح، كأنها مجرد لوحة من الزجاج الشفاف.. طلبت المجندة التي تجلس خلف الطاولة أوراق جلال وجواز سفره، ألقت نظرة عليها ووضعتها في جارور صغير، تماسك جلال ووقف كأي مسافر عادي، تفحص وجوه المسافرين الذين تعاد إليهم جوازات سفرهم، شعر أنهم

يتنفسون الصعداء ويشعرون وكأن حملاً ثقيلاً أزيح عن كاهلهم، يأخذ كل منهم جوازه ويذهب لقسم تفتيش الأمتعة والحقائب، أما جلال فقد طلبت منه المجندة بإشارة من إصبعها أن يتبعها نحو غرفة التحقيق.

في مبنى مجاور كان هناك عدة مجندات طويلات القامة وجميلات، يلبسن تنانير عسكرية قصيرة، أوقفته إحداهن في ممر طويل، اصطفت على جانبيه العديد من المكاتب، وطلبت منه الانتظار، كان هناك عشرات الأشخاص ينتظرون مثله، تفرس في وجوههم، معظمهم من الشباب اليافعين، جال بنظره إلى السقف، لاحظ أن هناك عدة كاميرات صغيرة مركزة عليهم.. مرت أكثر من ساعتين وهو يقف متحجراً كالصنم أمام المكتب، الحرارة لا تطاق، والعرق يتصبب من كل أنحاء جسده، صاح الجندي على اسمه، تحرك من مكانه واتجه ناحية المكتب، أشار له الجندي أن يدخل.. داخل المكتب سأله المحقق باللغة العربية عن اسمه الكامل ودراسته وعمله، ثم عاد وسأله عن مكان إقامته، وعن أقاربه في الضفة ومكان إقامته الجديد.. وبعد أن أجاب جلال عن كل الأسئلة، سأله المحقق عن التنظيم أو الحزب الذي ينتمي إليه، فأجاب جلال أنه لا ينتمي لأي تنظيم أو حزب، قال المحقق:

- نحن نعرف كل شيء عنك، نعرف عن دراستك الجامعية في بيروت، ومع من كنت تتعامل، كما نعرف في أي صحيفة كنت تعمل،

لكني أريد منك بعض الإجابات الواضحة، لا تتسرع، خذ وقتك وأخبرني عمن التقيت به في بغداد خلال زيارتك الأخيرة لها؟

- ...

- لا تتسرع في الإجابة، لقد طلبت لك فنجان قهوة، وأمامك على الطاولة ورقة وقلم، نحن لسنا على عجلة من أمرنا، أرجو أن تتعاون معنا وتسجل أسماء كل من تعرفهم في عمان ولبنان وبغداد، وإلى أي منظمة أو حزب ينتمي كل منهم..

- ليس لي علاقة بكل من هو منظم..

- لكن تعليقاتك في الصحف وكتاباتك أصبحت تقترب من آراء المنظمات الإرهابية..

- لا دخل لي بالإرهاب، أنا أدافع في كتاباتي عن وطني، فلسطين التاريخية.. فقاطعه الضابط بلهجة استنكارية بأن هذه الأرض لا تتسع لدولتين، ولولا أن حكومته وافقت على طلب لم الشمل، لأعاده من حيث أتى، ونصحه بإقفال فمه، والتعاون معه..

ومع أن جلالاً دافع عن حقه في الحياة بكرامة في ظل دولة فلسطينية على أرضه، إلا أنه لم يشأ أن يصل الحوار إلى طريق مسدود، فوالدته وزوجه وابنه ينتظرون خروجه من غرفة التحقيق بفارغ الصبر، مما دفعه للصمت، فوقف الضابط بعد أن امتد التحقيق أكثر من ساعتين، وناول

جلال جواز سفره قائلاً له أن بإمكانه الذهاب إلى غرفة التفتيش ومتابعة رحلته.

في غرفة التفتيش تذوب كل القيم، لا يهم إلا الأمن.. طابور أمام غرفة الرجال، وطابور أمام غرفة النساء.. الجميع يجب أن يتعرى إلا من ورقة التوت.. أيد تعبث، وآلات تئز فوق الجلد، تبحث عن شيء تحته ضد الأمن.. آلاتهم تكشف أشياء وتفشل في أشياء كثيرة، تمر رغماً عنهم، مخبأة في تجويف الجلد وخلف مآقي العيون، يحملها ابن الأرض ضد أمنهم، ويخبئها في صدره وفي كيانه، حب الأرض والوطن.. هكذا تحدث جلال مع نفسه وردد في أعماقه ما قالته فيروز *"الأساة ارتفعت، الأساة اتسعت"* .. وهو يفتح الحقائب في غرفة تفتيش الأمتعة.

لم ينته التفتيش بعد، يمر نصف النهار قبل أن يزحف الركاب بضعة أمتار، تتبعثر الملابس على موائدهم، يصرخ الأطفال، يرتفع شعار الأمن، بين السبابة والإبهام وحافة المنضدة يجب أن تمر كل قطعة ملابس، حليب الأطفال ممنوع، دواء المريض ممنوع، الهدايا ممنوعة.. قائمة الممنوعات طويلة لها بداية وليس لها نهاية.

أخيراً، من بوابة صغيرة، بعد امتحان صعب لمدى قدرة الانسان على الصبر وضبط الأعصاب، ينفذ جلال إلى الهواء الطلق، يندفع إلى أجمل أرض، يلتقي بوالدته وبزوجه وولده ناجي، يخر على الأرض ساجداً يقبل التراب، يحمد الله على عودته، يتلمس المسافرون أرض

الأحلام بأقدام صلبة، تجذبهم رائحة الوطن ونسمات شاردة تفلت من حصار حرارة الغور الخانقة، ونقاط التفتيش.. يرنو جلال ببصره إلى رابية على يمين الطريق، ثمة برج مراقبة يرفرف فوقه علم غريب، تتوسطه نجمة سداسية الشكل بخطوط زرقاء، ظلال صفراء تعم المكان وتحجب عنه الرؤية، يغض بصره، يُسرع إلى الحافلة التي توقفت لتقلهم إلى رام الله.. يحتضن ولده ويجلس في مقعد بجوار زوجته، ينتظر هدير المحرك.

قرابة الساعة الواحدة ظهراً، تنطلق الحافلة في الطريق إلى رام الله، تتلوى كراقصة، صاعدة بين الجبال، وثمة مسافرون كبار يثرثرون، يستعيدون أحلامهم المجروحة عن الوطن، العذاب والتصاريح، الغربة والشهداء، الهزائم المتراكمة والأحلام، الشباب والنضال ومقارعة المحتل، الشتات والعودة، طرْد المحتل وإقامة الدولة المستقلة، أجيال المستقبل وتحرير الأرض.. بكاء الأطفال يذكرهم بيوم التيه والخروج عامي النكبة ونكسة حزيران.. طريق التيه كانت في اتجاه واحد، النزوح البكر إلى شرق النهر، فلول منهزمة ورعب، طرق وعرة، مذابح ورؤى مبهمة عن استراحة حتى يوم العودة.

تتلاقى الخطوط والصور في عقل جلال، تترسب في الأعماق وتستعصي على مراكز التفتيش، أحلام المستقبل وحب الوطن لا تطوله

الآلات، لا تمنعه الأسوار والحواجز، دائماً وأبداً يحمل أمل العودة إلى الوطن الساكن في الوجدان.

أمام حاجز عسكري متحرك، تتوقف السيارة، ثمة جنود غرباء يكمنون وراء صخرة على جانب الشارع مصوبين أسلحتهم نحو الحافلة، يتقدم أحد الجنود، ينتصب أمام شباك السائق، يأمر الركاب إبراز هوياتهم.. يبدأ السائق بجمع جوازات الركاب، يفحص الجندي الوثائق ثم يعيدها للسائق، ويطلب منه أن يفتح خزانة الحقائب، يترجل السائق ويفتحها، يسمع جلال الجندي يسأل السائق عن مكان قدوم الركاب، وعن وجهة سيرهم، يخفض الجندي قامته ويجيل ببصره في الحقائب، يعود ويتمعن في وجوه الركاب واحداً واحداً، ثم يطلب من السائق متابعة سيره.

***

في شارع عريض وسط مدينة رام الله، تتوقف الحافلة، يترجل معظم الركاب منها، بينما يظل جلال ووالدته وزوجه وبعض الركاب، جالسين في الحافلة في طريقهم إلى مخيم قلنديا.. في المخيم، وفي الطريق إلى بيت شقيقها، والشمس تنحدر نحو الغروب، يتجلى لجليلة وضع المخيم من جديد.. فلم يكن ذلك المخيم الذي تركته قبل ما يقارب أربعة عقود.. اكتظت بيوته واتسعت مساحة أراضيه، وزاد عدد سكانه

لأكثر من خمسة أضعاف مما كان عليه، لكن البنية التحتية للمخيم ما زالت على حالها، مياه الصرف الصحي تسيل في قنوات مكشوفة، تنبعث منها روائح كريهة ومتعفنة، الطرق تالفة مملوءة بالحفر والمياه العادمة، ومساكن المخيم تفتقر إلى التهوية المناسبة.. تتوقف قرب بيت شقيقها، يظهر شقيقها ويستقبلها بدموع الفرح، وقبل أن تدلف بيته، يشير إلى بيت قريب من شجرة زيتون بدت أوراقها تلمع كصفائح صغيرة من الفضة ويقول: لقد أعدت ترميمه، وفرشته بالأثاث الذي يليق بشقيقتي وأسرتها.. لكن عليكم هذه الليلة المبيت في بيتي.

تنظر جليلة صوب البيت، تُحدق في شجرة الزيتون التي غرسها زوجها قبل اعتقاله، تتمشى نحوها، تروي أوراقها الخضراء بدموعها، تقف دقائق عدة عند قبر قديم، تستعيد ذكرياتها وتترحم على والد زوجها.. يتراءى لها زوجها ناجي وهو يجمع بنادقه ويضعها في صندوق خشبي، يحفر حفرة عميقة تحت شجرة الزيتون، ويضع الصندوق، ثم يغطيه بالتربة القديمة والحشائش، فجأة تصرخ ياسمين وتقطع استرسال أفكارها، ترى جلال وهو يأخذها بين ذراعيه، تشعر ياسمين أنها متعبة بعد عناء السفر، انتفخت ساقاها، وامتقع لون وجهها، تقول إنها تشعر بضيق في صدرها، كأن أحداً يضغط عليه، تُسرع جليلة وتقول إنه ألم المخاض، فينقلهم شقيقها إلى المستشفى في رام الله.

لم يفارق جلال زوجته، يظل جانبها على السرير في المستشفى، يسندها، يجفف عرقها، يحدثها، يهدئها.. تتمسك بيديه، تضغط عليهما، تتوسل إليه ألا يتركها وحيدة، تقول إنها تشعر وهو جانبها بالحماية والأمان، تصرخ، تتألم، تدفع وتضغط كي تُخرج الطفل من بطنها، يُسرع إليها الطبيب والممرضة، يخرج جلال ويقف قرب والدته في الممر ينتظران بقلق.

بنفس المقدار الذي يشعر به جلال بالفرح، وهو يحمل طفله الرضيع بين راحتيه، ويقبله من جبينه، يشعر بالحنين إلى والده، متمنياً رؤيته ليزف له خبر ولادة حفيده الثاني.. ولا يدري كيف وجد نفسه قرب شجرة الزيتون بعد عودته إلى البيت، يسترخي ويسترجع ما علق بذاكرته.. كان طفلاً، ولا زال يذكر من البيت بوابته القديمة، وذاك الحقل الذي كان يختبئ فيه أحياناً أثناء ألعابه الطفولية مع ياسمين وأقرانه.. أخذ يتنفس رائحة الأرض، خيل له أن العشب أمام ناظريه يتنفس بدفء.. كبرت شجرة الزيتون، تطاولت أغصانها، تصلب ساقها، وامتدت جذورها بعيداً في باطن الأرض، ومضى وقت طويل مذ فارق جده الحياة، وعلى الرغم أن جلال لا يذكر تفاصيل موته، إلا أنه لا زال يتذكر جده الذي ظل صامتاً بعد اعتقال ولده ناجي لوقت طويل، مصوباً نظره نحو القدس وتلال فلسطين، كما لو كان يعرف ما سيحدث منذ مدة طويلة.. وخُيّل لجلال أنه إذا حفر التراب عن قبر

جده، فسوف يقوم جده من جدثه ويجلس ليحدثه عن أيام النكبة كما كان يفعل في الأيام الخوالي، فحكايا مقاومة الاحتلال وغدْر الإسرائيليين بالمواطنين ما زالت محفورة في الذاكرة.. كان جده يصمت قليلاً ويتحدث كثيراً عن يوم الرحيل، يقول بأن رحيل أهل البلاد أمام ضغط العدو وقهره، لم يكن سوى البداية لوداع طويل لم ينته، بداية لهجرة جديدة لم تتوقف، لكنها تحولت مع مرور السنوات إلى فراق دائم.. حملوا ما استطاعوا من متاع وأغلقوا أبواب بيوتهم، وانطلقوا في الطرقات هائمين على وجوههم نحو الشرق بصمت وذعر، كما لو كانت ريح عاتية هبت فجأة، اقتلعت الأشجار وخلّفت دماراً في كل قلب وكل بيت، ولا سبيل إلى الخلاص منه إلا بالرحيل إلى مكان آخر.. كان الرحيل فجائياً، أيقظ في المهجّرين الإحساس بالتضامن والصداقة التي كانوا يجهلونها قبل ذلك الوقت، وحّدهم البؤس وجمعتهم الخيام، وعرفوا مدى ضعفهم أمام هجمة الأعداء، ذلك الضعف الذي وحّدهم أكثر من الصداقة وقرابة الدم، فراحوا يتعاونون في النهار، وفي الليل يتجمعون بعد العشاء في إحدى الخيام، يتقاسمون حرارة الصيف أو برد الشتاء والنار والذكريات.

يستعيد جلال كلمات جده، يشعر أنه ما زال حياً يعيش في ذاكرته، يتذكر ما كان يرويه له ولوالدته وهم يقبعون في بيت الصفيح بعد أن هدم جنود الاحتلال بيتهم.. تلك الليلة جلس جده على الحصير ومد

رجليه بصعوبة، تأمل مفتاح بيته المعلق على الجدار والذي يحتفظ به منذ أيام النكبة وعض على شفته السفلى، بعينين مفتوحتين كان يحلم ويتألم في نفس الوقت، تحدث عن زوجته لأول مرة، واستعاد الماضي بكل تفاصيله، قال إنه يوم تزوجها، كان وإياها في نعومة العمر والحواس، أقسما كأي زوجين متوسدين الأمل المنظور، أن يورثا أبناءهما كل الدفء الذي فقدا ظلاله، ويبعدا أولادهم عن الظلام القادم في جلابيب الغرباء، حتى لا يلبسوه ولا يورثوه لذريتهم، فكّرا بأولادهم الذين سيكبرون على أرضهم، سيعلمانهم كيف يحبون الناس، وكيف سيتغير الزمن الذي يليهم في حياة أحفادهم.. فجدّه لم يكن يهتم بعمره، "كما قال"، المهم أعمار أبنائه ومستقبلهم.. لكن الحرائق التي أشعلها الصهاينة وهم يغيرون على الحرث والنسل، والزمن الذي كان ينفلت من بين يديه مثل حفنة رمل ناعم بين الأصابع، ضيّع أحلامه، ودفعه إلى الهجرة والرحيل، خسر نفسه وخسر الأرض.

يضيف جده بأنه كان عليه أن يفهم بعد أن استشهدت زوجته وهي تحمل المسحاة وتفلح الأرض، أن لا مصير إلا مصير تلك الأرض، حمْل السلاح لمقاومة المحتل والانتظار في الحقول وبين الأشجار المثبتة في أمكنتها الطبيعية، الواقفة باستقامة.. كان على الفلسطينيين الصمود والوقوف في وجه الغرباء والريح والعواصف، كان عليهم أن يموتوا على الأرض واقفين، أفضل من أن تأكلهم المنافي، فالحرية والكرامة أغلى

من الحياة، "كما قال".. لا أحد يعلم الغيب، ولم يكن أمامهم خيارات كبيرة سوى الالتحاق بركب المهجّرين.. نسي الجميع أن الموت والحياة بيد الخالق، ولا أحد يعلم متى يناديه منادي الغيب..

"كل شيء ينساه المرء إلا وطنه"، يقول جد جلال، ويضيف بأن فلسطين هي أرض الجبارين وهي سيدة البلاد والأرض، مهد الأنبياء وأرض المقدسات، ويحلو له تسمية فلسطين بأرض الأحلام، فالاسترخاء أو النوم على تربتها المحروثة تحت ظلال الأشجار أو بين البساتين والبيارات يشعره بسعادة ما بعدها سعادة، وعلى أديمها الأحمر ينسى كل تعب نهاراته، ويضيف أن أرض فلسطين كانت ولا زالت جنة، إنها سيدة أحلامه، والدفاع عنها كان يحرق أصحاب الأرض في العمق، ويسلخ بعضاً من جلودهم، تمخضت الأرض وأفرغت من باطنها أفاعي وعقارب وأحجاراً صماء، راحت تقاوم عصابات الاحتلال وتتصدى معهم للمحتل، المحتلون لهم رائحة غريبة مثل رائحة الضباع.. رائحة نتنة، ما أن يمروا من مكان حتى يعيثوا فيه فساداً، ويتركوا فيه رائحة كريهة، وظلالاً صفراء كأوراق أشجار الخريف الميتة.. كانوا مخادعين، متسلحين بأحدث الأسلحة، وكان على أهل فلسطين أن يدافعوا عن وطنهم، ويخوضوا الحرب المفروضة عليهم، فالوطن أغلى من الحياة.. الكل يعرف أن الحرب مدمرة، قاسية وقاتلة للجميع، جُرْح كبير مفتوح بلا ضمادات، لكن قوات الاحتلال لم

تترك لأصحاب الأرض أي خيار، كانوا مصممين على رميهم خارج الزمان والمكان، حكموا عليهم بالطرد من وطنهم أو القتل، لم يستولوا على الأرض فقط، اغتصبوا حقهم في الحياة أيضاً، وكتموا نداءاتهم العميقة نحو الحرية والكرامة والاستقلال.

"السنوات تمر ولا شيء فيها يتشابه سوى العمر الذي يمضي كذوبان الملح في الماء".. يضيف جد جلال، ويتذكر الأرض التي فقدها، يتذكر بيته وأشجار البرتقال، الزيتون، التفاح، الرمان، الكروم المغروسة في الأرض، تعطّر كل الأمكنة المحيطة بها، خصوصاً عند الصباح عندما يبدأ الندى في الذوبان تحت تأثير الشمس الصباحية الناصعة، يضيف بأن "حبة العنب الواحدة أو حبة التين، كانت تملأ العين قبل الفم".

يعرف جلال منذ طفولته أن قلب جده محروق على أعز ما لديه حين تركه وراء ظهره، فيتركه مع أحاسيسه، يشعر أن الزمن القاسي لم يمس ذاكرة جده، ولم ينسه ما عاش من أجله، يتساءل جده ويسأل عن رفاقه ورفاق السلاح الذين خاضوا معه الحرب، ويحزن من جديد عندما يتذكر أن أحد رفاق الثورة مات، وأن غيره رحل ولم يعد يعرف أخباره.. تتجدد الأحداث في ذاكرته، ويرى نفسه يشرب الشاي بالنعناع أو الميرمية مع شريكة حياته على شرفة بيته، يحاول أن ينسى بتغيير الحديث قبل أن يغرق من جديد في دموعه، يضيف بأن بيتهم في

قرية صوبا كان يحيط به شجر الرمان، مقام على قمة مطلة على البحر من الغرب، وقباب مدينة القدس من الشرق، مصنوع من الأقواس كهيكل روماني قديم، يعطي روحاً جديدة لمن يلج عتباته، أما صوبا، مسقط رأسه، أو قلعة بلمونت كما كان يدعوها الفرنجة في قديم الزمان، فتقع على بعد عشرة كيلو مترات غرب القدس، قلعة قديمة وموقع أثري هام، تربض على جبل مخروطي الشكل، محاطة بالكروم والبساتين والأشجار المثمرة، استعصت على جيوش إبراهيم باشا عندما حاول احتلال فلسطين، وكانت مركزاً لتجمع الثوار في حربهم ضد العصابات الإسرائيلية قبل النكبة.. دمّرها الصهاينة عام النكبة، شأن بقية قرى القدس الغربية، لم يتركوا فيها حجراً على حجر، المسجد والمدرسة والمقامات والبيوت الرومانية القديمة، اندثرت معالم القرية، لكن حجارتها تدل على أن قرية كانت هناك، تحتضن قبور الآباء والأجداد، تنتظر الفجر لتعود تنفض الغبار عنها وتصحو إلى الوجود من جديد.

يصمت جد جلال لحظة، ينظر إلى الغرب بعينيه المرهقتين ويتابع بصوت حزين كمن يحفظ كلماته عن ظهر قلب، صوبا كانت عامرة بالناس الطيبين، يحبون الزيت والزيتون والزعتر، يشربون القهوة وعصير البرتقال، يحبون المساجد والأرض، لكنهم اقتُلعوا من أرضهم، فمتى يعودون!؟.

يستعيد جلال حكايا جده، ويردد كلماته الأخيرة "متى يعودون؟"، يشعر أن نيراناً تحرق جوفه وتمتد ألسنتها إلى أحشائه، الصور تتراكض في مخيلته وتشكّل ذاكرته من جديد، صور حزينة، مذابح، هزائم، منافي وغربة داخل وخارج الوطن، يعرف جده كما يعرف الكثيرون من المهجّرين متى بدأت حكايات قهرهم، لكنهم يجهلون متى يسجل تاريخهم قهر العدوان ومتى تكون عودتهم؟

يغمض جلال عينيه، يتراءى له جده من جديد وهو يضيف، "نيران المغتصب حرقت كل شيء فوق التربة، أتت على الأخضر واليابس، لكنها لم تستطع الوصول إلى جوف الأرض ولم تحرق الجذور، الجذور ما زالت حية".. يشعر أن كل ألوان قوس قزح تتجمع في عينيه في ثوب حداد فلسطيني، جده لم يفقد الأمل بالعودة، ومع أنه يعرف أن معالم صوبا اندثرت، ولم يعد فيها غير أشجار الصبار بعد أن اقتلعت من أراضيها أشجار الزيتون والرمان، إلا أنه يشعر بأنفاسه تغب وتعبق أريج زهر البرتقال والليمون واللوز في بيارات صوبا والقرى المجاورة، وفي كروم العنب التي يراها حاضرة في مخيلته.

أحلام جد جلال كانت كبيرة ولا حدود لامتدادها.. يسبل جفنيه ويغمض عينيه كمن يغمض على حبة رمل، يقول بأن أحلامه تقلصت وهو يرى بيته اليوم في أيدٍ غريبة.. تنزل الظلمة على وجهه، يشعر أنه يموت قهراً، ويتساءل كمن يحدث نفسه، ألم يكن من الممكن الانتظار

والصبر قليلاً، أو الاستشهاد في سبيل الوطن!، كان الأمل يملأ نفوس الفلسطينيين، ولم يشكّ أحد يوماً واحداً أنها ستكون حرباً خاسرة، كان عليهم أن يخوضوها باستحقاق وكبرياء، لا أن يديروا ظهورهم للأرض ويركضوا خلف الحياة كأي عسكري يائس.. كان عليهم أن يقفوا أمام المرآة لو دقائق معدودة، ليروا ما فعلوه بأحفادهم حين فضّلوا الحياة على الموت وتركوا الأرض.. كم يلزمهم في هذه السنوات من الوقت ليدركوا ما فعلوه، ويدركوا أن جراحهم كانت كبيرة، جراحات ومنافيَ لا تدوای إلا بأضعاف أضعاف من استشهدوا في ذلك الوقت!.

يصمت جد جلال لحظة، يتنهد وهو يتابع بأن لا قيمة للمال وأملاك الدنيا بلا وطن، الوطن سيد الروح وعش القلب، الوطن كيان الإنسان وهويته، مسقط رأسه ومدفن أجداده، مستودع تاريخه ومصدر رزقه ومنبع كرامته.. ويضيف "آه كم أشتاق أن ألمس ترابه، نداء الوطن هو الذي يعطيني الصبر على الحياة والمقاومة، لا أرض أرحم من أرض الوطن، الوطن لم يعلمني الحب فقط، أعطاني الحياة أيضاً".. يشعر جلال بعد خسارة جده لوطنه أنه فقد روحه، تبعثر كالرماد في الفضاء الفارغ، لا يدري ما يقول، يشعر أن جده يحتاج إلى نحت كلمات جديدة للتعبير عن حرائقه الداخلية، عن أرضه التي ينام عليها المحتلون بكل قوتهم وجبروتهم.. فما زال يشتم رائحتها، يتنفس أريجها وعطرها

ونسيمها، يشعر إنها قريبة منه كظله، تسكن في أعماقه.. "فالأرض تحب من يحبها"، ويشعر أن ليلة دفء على ترابها قادرة على ترميم كل الشقوق التي أحدثتها سنوات الغربة والمنفى في عمره.. ويضيف بأن الإنسان مهما ابتعد عن أرضه أو انفصل عنها، يشعر أنها تعيش في دمه كضمير وفعل وحركة ونماء متصل، إنها خبزه اليومي وممارساته الاجتماعية وعلاقته بوجود الآخرين.

رائحة حكايا جد جلال كان لها جاذبية خاصة، تلك الأيام التي سبقت حرب حزيران، كان جده يجلس على الحصير ويحك براحة يده وأصابعه على رأس جلال.. بذاكرة رمادية يحاول جلال أن يتذكر ملامح وجه جده وهو في لحظات صفائه الأخيرة، لون عينيه.. لم يتذكر غير لون لحيته البيضاء ودموعه، وهو يحدثه عن الأرض، سيدة أحلامه التي تركها ولم يستطع استردادها، وذلك البيت الذي لم يستطع العودة إليه، يتذكّر كلماته الأخيرة وهو يقول أنه كان يشعر وهو يغادر بيته وكأن الحبل السري بينه وبين حجارته وأنفاسه قد انقطع، رغم أنه ما زال يتنفس رائحته ويشم أريج الأشجار المحيطة به.. لم يكن جده يبحث عن كلماته، كان صادقاً في كل ما يقول، كانت جمله تأتي مسلسلة ومنتظمة في مخه، كأنه حضّرها من قبل ليقولها دفعة واحدة، لم يبد عليه أنه نسي شيئاً، الشيء الوحيد الذي لم يغادر عينيه هو تلك النظرة الهاربة

نحو الفراغ، كان يهرب بنظراته بعيداً، كأنه يحادث الجميع ولا أحد في الوقت نفسه.

يعود العجوز لصمته لحظه، يمسح ما علق بعينيه ويضيف قائلاً بأن الحرب تركت آثاراً جسدية ومعنوية على أصحاب الأرض الشرعيين، لم يكن لهم بدائل أخرى أمام ظلم وقسوة المحتل، لا مجال للصمت والوقوف متفرجاً، "فإما أن تتواطأ مع المحتل، أو تصرخ في وجهه وتقاومه بشتى الطرق".. يتذكر أن بعض المعارك لم تكن في صالح رجال المقاومة، لكن مجرد طلقات أخيرة لإقناع النفوس المنهكة أنها قاومت ولم تستسلم.. يضيف بأن الموت كان حقيقياً ولم يكن لعبة، ويؤكد أنه دفن بيديه العديد من المقاتلين الذين أغمضوا عيونهم واندفعوا لقتال المحتل، وهم يعرفون أنها المرة الأخيرة التي يقفون فيها على أرجلهم، والمرة الأخيرة أيضاً التي يرون فيها الشمس تشرق على قباب وهضاب القدس قبل أن تشرق على فلسطين.. "قبورهم ما زالت هناك، وحيث تنبت القبور يفقد المرء شيئاً منه"، يتأوه ويضيف بأنه لم يبق في جسده قوة ليتحمل الغربة ويُنشئ مقبرة جديدة، أو يحفر له قبراً جديداً، فالمنفى مقبرة جديدة، والجرح هوية، لم يعد يعرف ما إذا كان في منفى أو في قبر أو سجن، ولا يدري من هو السجين هو أم ولده ناجي، يشعر أن سيفاً يشقه إلى نصفين، مثلما يشق البرق كبد السماء المحروقة برماد الغيوم الثقيلة، شطْر يحمل هموم دنيا المنفى والغربة، منكسر،

والشطر الآخر يخبئ بداخله كل الخيبات المبطنة في الأعماق.. في الأعماق قرية دخلها المسلحون الصهاينة تحت جنح الظلام، بعد أن دكوها بمدافعهم ليومين متتاليَين، كانت المقاومة عنيدة، وكان الموت حقيقة، تناثر رجال المقاومة في الحقول وبين البيوت للدفاع عن القرية، مرت الساعات طويلة ولم يتوقف إطلاق النار، مع انبلاج الفجر انسحب المسلحون من القرية الواحد بعد الآخر، مخلفين روائحهم التي كانت مزيجاً من الجيفة والخمائر القديمة، وإلى اليوم ما تزال تملأ أنفاس جده كلما تذكر ما حصل لأهل القرية، فقد عاثوا فيها قتلاً وتدميراً، نسفوا البيوت، ذبحوا النساء والشيوخ والأطفال، وقتلوا العديد من رجال المقاومة، ولم يسلم إلا من اختفى عن أعينهم، ولم تحن ساعة موته، يضيف جد جلال، "دفناهم في قبور جماعية، وغادرنا القرية نبحث عن ذخيرة، لكننا لم نستطع العودة إليها بعد أن عاد الصهاينة واحتلوها ثانية".. تلك الليلة فقد جده يقينه في كل شيء، "كما قال"، كان يفضّل أن يخسر عمره ويبيع كل ما يملك من متاع، مقابل أن لا ينفصل عن تلك الأرض التي استولت عليها قوات الاحتلال بقوة السلاح.. يردد بأن الصدمة كانت قاتلة، صدمتهم قوة المحتل وتخاذل الأشقاء، وفجأة ذات ليل لم يطلع له نهار، جُرّ شعب عن بكرة أبيه ووضِع على حدود وطنه، لا ذنب له إلا أنه وُلد وعاش في تلك الأرض منذ آلاف السنين.. كان الطرد والتهجير والتعذيب والتغريب مهيناً وحاقداً، ولّد في النهاية

المزيد من الكراهية والأحقاد على المحتل، "كما قال"، الاحتلال دفع أصحاب الأرض ليظلوا يقظين دائماً، قنابل موقوتة في وجوه المستوطنين الجدد وجنود الاحتلال، وأضاف "الخير يورّث، ومن المؤسف أن الأحقاد تورّث أيضاً، أجيال توالدت أجيال، توارثت الحقد على المحتل، كما توارثت جينات حب فلسطين".

يستعيد جلال كلمات جده من جديد، يتذكره وهو يقول بأن "قوات الاحتلال حاولت بعد النكبة طمس معالم أصحاب الأرض، وطمس معالم القدس والمدن الفلسطينية الأخرى، ليضعوا لمسات جديدة عليها، يستطيعون من خلالها ليّ أعناق الفلسطينيين، وإثبات ملكيتهم للأرض"، ويضيف "إنهم يزوّرون التاريخ ويدّعونه لأنفسهم، لكن أهل فلسطين يعرفون تاريخهم، ويعرفون أرضهم شبراً شبراً، كما يعرفون أولادهم.. يعرفون أن دولة إسرائيل ولدت من فضلات وزبد وأملاح البحار والمحيطات البعيدة، وعاجلاً أو آجلاً ستتلاشى وتذوب كما يذوب الملح في الماء".. يشعر جلال أن جده كان يعرف أكثر مما يعرفه الآخرون، يعرف أن هناك خيانات يسكت عنها التاريخ لإنها تحرجه، وعندما يتذكرها يكون كل شيء قد رُتّب ولفّته استحالة التغيير.. لكن فلسطين هي الكل في أجزاء شعبها وشتاته، ومهما تفرقت هذه الأجزاء، فإن العودة إلى رحمها يدفع أبناء الوطن إلى الولادة من جديد، ويبعث فلسطين التاريخية من جديد.

يشعر جلال أن جده كان يبحث عن صحوة في أعماقه، كيف يحافظ على ما تبقّى من ذاكرة نصفها محروق، ونصفها الآخر مهزوم، وكيف يعود إلى وطنه!؟.

رغبته في العودة إلى وطنه كانت مثل الطوفان.

يتراءى لجلال جده من جديد وهو على فراش الموت، يتذكر أن والدته جليلة هي التي وقفت بجانبه في أيامه الأخيرة، مات حاضناً كفها مثل طفل، وعيناه مليئتان بالدموع، لم تنتظر جليلة بعد موته طويلاً، وهي ترى الناس يحزمون أمتعتهم ويستعدون للرحيل، كانت مثل جده مليئة بالقصص والحكايات الكثيرة، حتى انتهت ضحية في عمق المنفى، اختلطت عليها حدود الحقيقة بالخيال في حرب حزيران وهي ترى الأوضاع قد تغيرت تماماً، كل شيء تغير، وأصبح الجميع في مهب الريح كأوراق خريفية معزولة، بعد سياسة الطرد الجماعي التي مارسها المحتل على أبناء الأرض.. شعرت أن وفاة العجوز تركت في أعماقها خدوشاً كبيرة، وأن موته عرّاها من أية وسيلة دفاعية، فاندفعت مع ابنها وابنتها، بعد أن وارى الأقرباء جثمانه، تجر أذيال الخيبة نحو المجهول، حملت إبريق الماء وبعض الحكايات التي ظلت تملأها من حين لآخر، وقالت الحياة أفضل من الموت، نعيش منفانا وننتظر العودة، امشوا إلى عمان.

يستعيد جلال تلك الأيام، يشعر أنه أصبح يتيماً حقاً بعد موت جده، ولم يبق له تلك الأيام غير صدر والدته، تلك الأم الرؤوم التي قاست من العذاب ما لم يتحمله إنسان، وهي تحتضنه وتحتضن شقيقته وتهيم بهما نحو الشرق، إلى أن اشتد عوده، وأصبح رجلاً عصامياً يعتمد على نفسه.. ومع التقائه بياسمينه التي أحبها من أعماق قلبه، أحس برجولته، وها هو اليوم يصبح رباً وعائلاً لأسرة تمتد جذورها في الحياة، وهذا ما كانت تحلم به والدته جليلة منذ أول نقطة حليب رضعها من ثدييها.

***

السجن الكبير

منذ أن وصلت جليلة مخيم قلنديا وهي تحلم بالصلاة في المسجد الأقصى وزيارة زوجها ناجي في سجنه، راحت تستعجل الوقت وتبحث عن صديقاتها وجاراتها القديمات في المخيم، لم يبق منهن إلا القليل، البعض استضافتهن مقبرة المخيم، أخريات هاجرن مع أزواجهن سعياً وراء لقمة العيش، منهن من رحلن إلى أماكن أخرى، والقليل منهن تشبثن في بيوت المخيم الطينية.. أما ياسمين فلم تسعفها الذاكرة إلا بالقليل من أيام طفولتها، فما أن استقر بها المقام حتى توقفت في الأماكن التي لعبت بها مع صديقات طفولتها وهن صغيرات، كان أحب الأماكن إلى قلبها ذاك الذي تصنع فيها عرائسها الطينية، الآن يحتل المكان أطفال آخرون، وقفت ترقبهم من بعيد، كانوا إناثاً وذكوراً يلعبون ذات الألعاب، تأملتهم بحب وهي تحمل رضيعها وصغيرها ناجي يقف قربها، غبطت الأطفال في سرها، اقتربت ودفعت ابنها ناجي ليشاركهم اللعب، لكنها تراجعت وهي تعبر طفولتها بهذه السرعة، وتستعيد لقاءها الأول بجلال مع رفيقتها نبيلة، وهما تطاردان الفراشات في حقل قريب من المخيم.

الصلاة كانت تريح أعصاب جليلة، صلت فجر يوم الجمعة في بيتها، ويمّمت وجهها نحو القدس برفقة ولدها جلال، ولم تكن تعلم أن مناشير وزعت قبل ذلك اليوم في رام الله والقدس ومدن الضفة الغربية، دعت فيها الحركة الإسلامية إلى مشاركة واسعة للصلاة في المسجد الأقصى يوم الجمعة، احتجاجاً على الحفريات المتواصلة أسفل المسجد، وإحباط خطط الصهاينة بهدمه، ليبنوا هيكلهم المزعوم.. كما لم تكن تعلم أن سلطات الاحتلال شرعت منذ ليلة الجمعة بإقامة الحواجز وفرض إجراءات وقيود مشددة على دخول مدينة القدس، وعززت من انتشارها في المعابر والحواجز العسكرية الثابتة والمتحركة على المداخل الرئيسية للمدينة ومحيطها، أغلقت محيط البلدة القديمة، وفرضت حصاراً عسكرياً محكماً على المنطقة.

شعر جلال إنها فرصته التي كان ينتظرها منذ زمن طويل، فلم يسبق له أن زار المسجد الأقصى والصلاة فيه، لكن المعضلة التي واجهته أن سلطة الاحتلال اتخذت قراراً يمنع من هم دون سن الخمسين من الرجال من دخول القدس، ومن النساء دون سن الأربعين عاماً، لهذا سمحوا لوالدته وكبار السن بالدخول إلى باحة المسجد والصلاة في ظلاله، بينما ظل جلال وعشرات من أمثاله خارج أسوار القدس، واحتشد مع آلاف المصلين من سكان القدس وفلسطينيّي الجليل والمثلث، الذين أقلتهم الحافلات منذ الصباح، للمشاركة في الصلاة

والاحتجاج على الحفريات، ووقفوا في منطقة باب العامود، رافضين إجراءات الاحتلال.

اقترب موعد الصلاة، تجمع المصلون أمام بوابة باب العامود، أهم وأجمل أبواب القدس، باب العامود له أسماء عدة، الباب الشامي أو باب نابلس، باب النصر أو طريق الانتصار، حيث كان يُستخدم ممراً للملوك الذين افتتحوا القدس أو احتلوها سالف الزمان، كثيرة هي الأسماء لباب العمود، يتكون الباب من قوس ضخمة ترتكز على دعامتين من الحجارة المنحوتة، مصنوع من الخشب المصفح بالنحاس، ذو مصراعين، شاهق الارتفاع، تعلوه قوس نصف مستديرة وفتحات أو ثقوب ذات طابع أمني مدببة، فوقها أبراج مزركشة مدببة الشكل، عرضه قرابة أربعة أمتار ونصف، منقوش على الباب "لا إله إلا الله محمد رسول الله".. ردد جلال بصوت خافت وهو يستعيد تاريخ الباب "لا إله إلا الله محمد رسول الله".. شعر بالهدوء والاطمئنان، وهو يرى أفئدة الناس تهوي للصلاة على مشارف القدس، أولى القبلتين، قلعة شماء محتلة، فيها غرس الأجداد تاريخهم وحضارتهم، مجدهم، وغابوا، ورفاتهم ما زالت تنتظر أيدي الأبناء لتبني ما تهدم، تنتظر عودة الأحبة ورحيل الوجوه الكالحة والأقدام الثقيلة.. "آه، كم هو حلو طعم العودة والصلاة في المسجد الأقصى بعد تحرير الوطن"، حدث جلال نفسه، وفرش سجادته الصغيرة بين صفوف المصلين.. أعداد المصلين في

ازدياد، لم يعد المكان يتسع لهم، استقبل المصلون القبلة ووقفوا في صفوف متراصة، صفوف المصلين لكثرتها سببت أزمة سير، حاولت الشرطة منع المصلين الجدد من الانضمام إلى الصفوف، لم يتوقف سيل المصلين، اعتدى الجنود عليهم بالضرب، رشوهم بالمياه وأطلقوا عليهم قنابل الصوت، ثارت ثائرة المصلين، تزاحموا، ألقى بعض الشباب الحجارة باتجاه الشرطة، ردت الشرطة بالهجوم على المواطنين العرب بالرصاص المطاطي والقنابل المسيلة للدموع.. رُفعت الشعارات المنددة بالاحتلال، "الأقصى للمسلمين، القدس للعرب، ارحلوا عن بلادنا".. ظهر جنود جدد يمتطون الخيول، هاجموا الحشود بعصيهم وهراواتهم، قذف المواطنون الخيالة بالحجارة، وقف الجنود صفاً أمام المتظاهرين، أطلقوا عليهم الرصاص المطاطي من جديد، سقط بعض المتظاهرين جرحى على الأرض، بعضهم أصيب بحالات اختناق من جراء قنابل الغاز المسيل للدموع، تسارع المواطنون ونقلوهم إلى مستشفيات القدس.. شعر جلال بتلاحمه مع المواطنين، وانتمائه الحقيقي للوطن.. كر وفر معهم أمام جنود الاحتلال، وغاصت ذاكرته في حقبة عفا عليها الزمن في بيروت، تراءت له مسيرات شعبية لا تتوقف، مظاهرات، مقاتلون، أسلحة، لافتات وشعارات، جماهير تزحف وكأنها يوم الحشر، جماهير تتشرد وتُلقى خارج أوطانها، معارك في الذاكرة تدور وتطحن الشعب الفلسطيني، حجارة تتساقط كالمطر على الجنود وحشود تتدافع،

جموع محاصرة، وعالم جديد يتكون في ذاكرته وهو يرى الشعب الأعزل يصمد أمام الجنود المدججين بالسلاح.. أغلق الجنود "حاجز قلنديا" العسكري على المدخل الشمالي لمدينة القدس، ومنعوا المصلين عند الحاجز من التواصل والتلاحم مع المصلين داخل القدس، هاجت الجماهير، وصاح أحد الملتحين فيهم "هذه معركة بين الخير والشر، بين أبناء الوطن الشرعيين وبين المحتلين الصهاينة، بين العرب مسلمين ومسيحيين وبين الإسرائيليين والصهاينة الذين يحبون الحرب ويكرهون السلام".. وقال آخر "مدينة القدس كانت دائماً مشرعة الأبواب قبل الاحتلال، مفتوحة لكل أبناء العالم، أما اليوم، فلا يستطيع أبناؤها الشرعيون دخولها إلا بتصريح من المحتل، هذا من علامات الساعة".. تسارع المواطنون ووقفوا صفوفاً متراصة جنباً إلى جنب، يقذفون الحجارة على الجنود ويهتفون بأصوات مدوية "بالروح بالدم نفديك يا أقصى"، ولم تفلح قنابل الدخان أو القنابل المسيلة للدموع أو حتى خراطيم المياه الباردة والساخنة في تفريقهم، أو النيل من صمودهم.. رد الجنود عليهم بالذخيرة الحية، وفرضت السلطات على المنطقة منع التجول.

***

صباح اليوم الرابع ساد الهدوء وعادت الحياة إلى طبيعتها.. أسرع جلال مع والدته وتوجها إلى سجن عسقلان لزيارة والده، توقفت السيارة التي تقلهما قرب سور السجن، سجن عسقلان يشبه قلعة ضخمة يحيط بها من جميع الجوانب سور ضخم ومرتفع، يعلو هذا السور متران من الأسلاك الشائكة الكثيفة التي لا يستطيع عصفور صغير المرور من بين ثقوبها، جاعلة أي محاولة للهرب أو التفكير فيها مستحيلة، شعر جلال أن قلبه يتسارع في نبضه، يدق بين جدران سجن أبيه القاتم وبين الرغبة في رؤيته، وجليلة تستعجل الوقت لتحتضن زوجها بين جفنيها، متمنية لو كانت ابنتها نبيلة برفقتها لترى والدها.. لكن ناجياً لم يكن في سجن عسقلان، فبعد تدقيق الأوراق قيل لهما إن ناجي تم نقله قبل عدة سنوات إلى سجن صحراوي في النقب قرب بئر السبع.. فعادا وتوجها إلى منطقة بئر السبع.

الجو كان حاراً ورطباً، والزوار يقفون في صف طويل أمام بوابة السجن يتذمرون، الباب الوحيد الذي يؤدي إلى قاعة الزيارات مصنوع من الحديد السميك.. فتح لهم الباب رجل طويل القامة يلبس بذلة عسكرية، سمح للعديد من الزوار بالدخول، في الداخل أوقف الجنود الجميع في صف طويل، تحسسوا ملابسهم وجيوبهم، فتشوا الأغراض التي يحملونها، سمع جلال أبواباً حديدية تنفتح وتنغلق، مداخل طويلة ذات قضبان حديدية من الأرض إلى السقف، تمتد من الباب إلى وسط

المبنى المعتم.. ضغط أحد الحراس على علبة كرتونية بيد أحد الزائرين، ثم فتحها وقال "ربما يكون بداخلها مبرد صلب أو شفرة منشار للمعادن".

بنفس الشعور والإحساس بالعجز الذي شعر به جلال عندما رأى والده، خلف شبك حديدي بثقوب صغيرة، شعر بالبغض والكراهية نحو الحارس، كان والده ينظر بعينين مرهقتين ويرقب الزوار، بدا ناحلاً وشاحباً، واختفت ابتسامته بين ثنايا تجاعيد وجهه، صرخت جليلة ونادته "ناجي"، ما أن وقع بصره عليها حتى تغير لونه، وكاد يقع على الأرض، وراقبه جلال وهو يمسك القضبان بيديه، ثم يجلس ويتحدث بسماعة الهاتف من خلف الزجاج السميك مع والدته.. بدا تعباً وقد تقوس ظهره قليلاً، وملأ الشيب رأسه.. والسجناء يقفون خلف الشبك الحديدي وأيديهم على القضبان، ينظرون إلى زوارهم، ويتحدثون بأصوات عالية.

قال ناجي لزوجته جليلة ألا تحزن، وسألها عن ابنته نبيلة، كما سألها عن شجرة الزيتون التي غرسها قبل اعتقاله، إذا كانت قد نمت وأثمرت وتصلّب عودها في الأرض!.. وبدا لجلال أن والده لم يفقد الأمل مع مرور السنوات، رغم إصابته بمرض السكري والكلى في سجنه، وظل هناك ما يضيء قلبه ويدفعه للأمل.. وحين تحدث معه قال

له ألا يفقد الأمل بالمستقبل، وألا يقلق عليه، فالسجن لم يزده إلا صلابة وإصراراً على الصمود وتحرير الأرض.. وأضاف بأن المستقبل للأجيال القادمة، ولا شك في أن الجلاد سيتخلى عن سوطه، ويعود الصهاينة من حيث أتوا، وعاجلاً أو آجلاً سيتركون الأرض لشعبها الفلسطيني، الذي ولد وعاش عليها منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة.

ومع أنه قال ذلك، إلا أن جلال شعر بحزن دفين في صوت والده، بدا ذلك واضحاً من خلال هزات شفتيه اللاإرادية وهو يتكلم، وفي بحة صوته ومرارته الذي كان فيه شيء يشبه الغصة.. وأحس به وقد خسر كل شيء، ضحكه ودموعه وجلده، وذاك الحقل الكبير، وتلك الأشجار الملونة التي غرست جذورها في الأرض، وتطاولت سيقانها نحو الشمس، وتلك النجوم التي لم يرها وهي تشع نوراً في الصيف.. ولم يستطع أن يرد على أبيه لفرط مشاعره، وحبس الدمع في عينيه حتى لا يراها والده.

في طريق عودته مع والدته في الحافلة الصغيرة إلى رام الله، جلس رجل عجوز في مقعد مجاور لهما، وأخذ يقص على مسامع الركاب فجيعته بحفيدته التي توفيت قبل أيام عدة.. قال إن حفيدته البالغة من العمر أحد عشر عاماً، وأثناء زيارتها الأخيرة لوالدها في سجنه الصحراوي، كانت متلهفة لملامسة أبيها واحتضانه، بعيداً عن الزجاج

الذي يفصلها عنه، وقد حاولت بشكل قوي الوصول إليه بعد التحدث معه عبر جهاز "الإنتركوم" عن بعد، إلا أن كل المحاولات فشلت لإقناع السجان بتمكينها من الوصول لوالدها ومعانقته، مما أدى لإصابتها بحالة من العصبية الشديدة، واشتد غضبها لاحتضان والدها أثناء دخوله إلى معتقله دون أن تستطيع معانقته، فأخذت تضرب الجدار العازل الذي يفصلها عنه بجبينها ويديها.. بعد عودتها للمنزل بدأت تفقد السيطرة على نفسها، مما اضطر العائلة نقلها للمشفى الذي أوضح بأنها تعرضت لصدمة نفسية عنيفة، أدت إلى عدم مقدرتها على الحركة والنطق، لتبدأ رحلة علاج مؤلمة وقاسية قبل أن تدخل في غيبوبة، وتنتقل إلى رحمة الله تعالى، دون أن تتمكن من تحقيق أمنيتها المتمثلة باحتضان والدها وتقبيل يديه، كبقية أطفال العالم.

أضاف جد الطفلة، إن حفيدته كانت تحلم بالحرية لوالدها ولكافة الأسرى، وكان حلم طفولتها الأخير أن تحضن والدها للمرة الأخيرة قبل استشهادها، إلا أن ظلم الاحتلال وقهره وجبروته، منعوا تلك اللحظة الإنسانية بين الطفلة ووالدها الأسير، الذي يقضي حكماً بالسجن المؤبد أربع مرات في سجن النقب الصحراوي، قضى منها ثمانية أعوام فقط.

***

توالت زيارات جلال الشهرية لوالده الأسير، وكانت حالة ناجي الصحية تمضي من سيّئ إلى أسوأ، والسعال الحاد يمزق صدره.. وخلال تلك الفترة تقدم جلال بعرائض استعطاف واسترحام للجهات المختصة، للإفراج عن والده نظراً لحالته الصحية، كما قام بتوكيل محام لإعادة محاكمته، إلا أن سلطات الاحتلال رفضت كل الطلبات، وأصرّت على تنفيذ العقوبة الصادرة بحق ناجي.. وفي زيارته الأخيرة لوالده قيل له أن ناجي تم نقله للمستشفى.

أسرع جلال إلى المستشفى للاطمئنان على صحة والده، كانت صحته قد تدهورت فجأة وأصيب بغيبوبة أثر نوبة سكري حادة، لم يفلح العلاج معه، وتوفي قبل وصول جلال إلى المستشفى.

كالصاعقة وقع الخبر على جلال، هرول في ممرات المستشفى، لعل والده ما زال على قيد الحياة.. ارتعش جسده، اضطربت دقات قلبه وزاد خفقانه، تهاوى من يده هاتفه النقال وسقط على الأرض وهو ينقل الخبر لوالدته، حُزْنٌ عميق جثم في أعماقه، حُزْن اتخذ شكل غربة بلون الدم أقصته بعيداً عن والده وعن أسرته، نظر إلى والده المغطى بشرشف أبيض وحدث نفسه، "لكل مجد ضريبة، وضريبة الصراع البطولي التي خاضها ناجي أن يكون أسيراً، ثم شهيداً يسجل اسمه في سجل الخالدين".. أخذ نفساً عميقاً وأغمض عينيه بحثاً عن تفاصيل منسية،

طنين تزاحم في رأسه دفعة واحدة، جعله يصطدم بكل ذكرياته مع والده، شاهد بأم عينيه نفسه وهو صغير بين ذراعي والده، بيته وفراشه وتفاصيل مخيم قلنديا قبل الرحيل عنه، أقرانه وياسمين الصغيرة، وشتلة لشجرة زيتون تطل على نافذة غرفته، ووالده يركع على ركبتيه ويغرسها بيديه..

الخبر ألهب مشاعر الأهالي، هبّ الأقارب وتجمهر أبناء المخيم عند سماعهم خبر وفاة الأسير في سجنه، سارت الجموع المشيعة في الجنازة وهي تنشد الأغاني الحماسية، وتندد بالمحتل، وجنود الاحتلال يحملون بنادقهم الرشاشة ويرقبون الموكب من بعيد.. رفع المشيعون الجثمان فوق رؤوسهم في عزة وإباء، وشمم الأبطال، داروا به أرجاء المخيم قبل أن يتوقفوا قرب شجرة الزيتون، قال أحدهم "إكرام الميت دفنه"، وقال آخر "عزاء الشهداء دفنهم في أرض الوطن".. حفروا حفرة عميقة، وبدموع ثقيلة أودعوا جثمانه.

***

لم تنم جليلة تلك الليلة، تحجرت الدموع في عينيها، وبدت كأنها شاخت فجأة، ولساعات طوال ظلت جالسة عند القبر كالخرساء.. أما

جلال، فما أن غادرت والدته المكان، حتى جمع حجارة صغيرة صفها بترتيب حول كومة التراب، التقط أوراقاً من شجرة الزيتون ونثرها على القبر، عاد وأسند ظهره على جذع الشجرة، تساقط دمعه وهمس، "يرحمك الله يا أعز الناس"، وظل هناك حتى وقت متأخر من الليل.

تلك الليلة تغير الجو، وساد الظلام كل أنحاء المخيم، ولم يستطعْ الهلال الوليد أن يبدد شيئاً من عتمة الليل، وما أن بزغ من وراء غيمة، حتى اختفى وسط غيوم سوداء كثيفة، وما بين وقت وآخر كانت نجوم بعيدة تلمع من خلال فتحات صغيرة بين الغيوم.. ساد المكان صمت حزين، ولم يعد يُسمع سوى همس الريح، يلفح أوراق شجرة الزيتون كلحن جنائزي لا يكاد يُسمع.

تأوه جلال معبراً عن استهجانه لمثل تلك التخيلات التي دارت في رأسه، ونقلته إلى الماضي البعيد.. تمنى لو كان والده حياً ليأخذه بين ذراعيه، كما كان يفعل خلال طفولته.. تراءت له الأحداث من جديد، وشاهد نفسه وهو في الخامسة من عمره بين ذراعي والده.. يومئذٍ كان الوقت مساء، ولم يبق لعيد الفطر غير بضعة أيام، وزوجته جليلة تلح عليه بأن لا ملابس جديدة عند الأولاد.. يومها رافق جلال والده وهو يطرق أبواب بيوت الأقارب، يسألهم حاجته، ويطلب منهم أن يقرضوه نقوداً، لكن أحداً لم يلبِّ طلبه، وحين توقف أمام بيت أحد معارفه، قال

له الأخير "أعرف أنك تملك بندقية، شأن معظم أبناء المخيم، فلماذا تقترض؟، لماذا لا تبيع بندقيتك؟".

كمن لسعته عقرب، ارتعش ناجي، صوّب نظرة اتهام إلى جاره، أنّبه في صمت لأنه تجرأ وذكر هذا الشيء العزيز على قلبه، البندقية!، إنها آخر ما يخطر له على بال.. خفض رأسه وتابع مسيرته دون أن ينطق بحرف.. استوقفه الرجل وأضاف: بثمنها تستطيع أن تتدبر أمرك وتقضي حاجتك..

نظر ناجي إليه نظرة عتاب وقال: لكن البندقية..

- مائة دينار، أعطيك مائة دينار.

لم يعد ناجي للبيت تلك الليلة، ولم يتناول طعام الإفطار مع أسرته، اتجه نحو منحدر صوب كروم العنب التي بدأ النواطير يبنون فيها عرائشهم، جلس حزيناً منكمشاً على نفسه ساعاتٍ طوالاً، وقبل أن ينتصف الليل، هبّ واقفاً، أسرع عائداً إلى مكان قريب من شتلة الزيتون، أزاح بعض الحجارة، ونبش في الأرض حتى وجد صندوقاً فيه ثلاث بنادق، كان قد خبأها قبل فترة وجيزة، تناول إحداها وفك قطعة المطاط التي كانت تحميها، تحسسها في الظلمة، وردد بألم "إنها مصيبة، أن تكون بلادك محتلة، ولا تستعمل هذه البنادق.. لكن أن تبيع.."، غاص في ظلمة الليل، مد يده ولمس أخمص إحدى البنادق الخشبي، وفي

أعماقه تساءل كيف يفرط ببندقيته!، البندقية في خياله شرفه وعرضه وأرضه، قطعة من تاريخه وتاريخ بلاده، كيف لا وهي تجسد حبه لوطنه وزوجه وأولاده، إنها زغرودة فرحه يوم زفافه، الدبكة والموال، السامر والميجنا والأرغول، السمر في ليالي السهر في الحقول والحواكير، نضاله وكفاحه، وإرثه، فكيف تهون عليه، وكيف يفكر بالتفريط فيها؟. حدث نفسه بذلك، ثم لفها بقطعة المطاط ثانية، وأعادها إلى الصندوق بعينين حزينتين، وكمن يغلق تابوتاً على جثمان عزيز عليه، أغلق الصندوق، وأهال عليه التراب، وأسرع يخف الخطى، تطارده ظلمة الليل، يتخبط وسط الكروم.

لحق جلال بوالده، اجتازا ممرات ضيقة بين البساتين، عبرا طرقاً فرعية في الظلام، أطال ناجي المشي، حتى ظن جلال أن والده ضل الطريق إلى بيته.. وحين أخذ يبكي من شدة التعب، تنبه والده بأن هناك من يتبعه، فحمل جلال بين ذراعيه، وعاد إلى بيته.

في البيت تلقفته جليلة بلهفة، لامته على تأخره عن موعد الإفطار، قالت إنها ظلت قلقة عليه طوال الوقت، وسألته عن سبب تأخره، قال إنه كان يبحث عمن يقرضه نقوداً، ولا يدري كيف راودته نفسه على بيع بندقيته.. فغرت جليلة فاها، وقالت إنها ستتدبر أمرها وأمر الأولاد في العيد، وإن الأمور لم تصل إلى حد الفاقة، "لكن أن تبيع البندقية!".. وأضافت "لا أدري كيف سوّلت لك نفسك أن تُفرّط بسلاحك!"..

ولم يكن جلال وقتئذٍ يعرف قيمة السلاح، لكنه شعر أن مصابيح القرية انطفأت في عيني والده، وإنه فقد فرحة العيد التي كانت تدغدغ أحلامه.

والده لم يعلمه مناطحة الصخور، "حدث جلال نفسه"، لكن علمه كيف يكون شجاعاً وبطلاً، وكيف يتغلب على المصاعب.. أعطاه شرف الحياة، وعلمه ما يقول لأبنائه في المستقبل "فلسطين أمكم، هي التي أرضعتكم، فلا تنسوا حليب الطفولة".

***

الريح تدفع الغيوم، تصفعها وتسوقها، تمر عن جلال وتتخطاه، يعرض وجهه للريح غير مبال بلسعاتها، يشعر أنه فخور بوالده رغم صعوبة المسؤولية التي ألقاها على عاتقه، يحتد، يحدث نفسه "ما أراده الآباء نضج في نفوس الأبناء.. هذا كل شيء، وعلى الشباب والأجيال مواصلة العمل".. نظر يميناً ويساراً، تراءت له أضواء البؤر الاستيطانية والمستوطنات التي أقامها المحتل تتلألأ كفوانيس خافتة من بعيد، عاد ونظر نحو الغرب، حجب جدار الفصل العنصري الذي يفصل بين مدن وقرى فلسطين مدى رؤيته.. تراءت له خلف الجدار بلاده ومدنه وقراه المغتصبة منذ زمن بعيد، أكّد على كلماته التي لم ينطقها

"على الشباب مواصلة الطريق، وأرض فلسطين لنا"، وراحت يداه تعبثان بكومة التراب فوق قبر أبيه.

ازدادت ظلمة الليل، واشتدت برودته، فجأة سمع صوتاً، ظن لأول وهلة أن مصدر الصوت كلب أو حيوان ما، نظر حواليه، لم ير شيئاً، خطر بباله أن ينادي مَن هناك؟، لكنه أحجم ووقف، فجأة ظهر أمامه رجل طويل كالشبح يرتدي جلباباً طويلاً ساداً عليه الطريق، ارتجف جلال وسرت قشعريرة في جسده، قال الرجل: عظّم الله أجرك يا جلال، رحم الله والدك، ومَن خلّف ما مات.

نغمة الصوت لم تكن غريبة على ذاكرة جلال، خُيّل له أنه يعرف هذا الرجل، لكنه غاب عن ذاكرته، اعتقد أنه أحد أقاربه، تساءل في أعماقه "ولكن من هذا القريب الذي جاء لتعزيتي بوالدي في هذا الوقت المتأخر من الليل!"، لم تسعفه الذاكرة.. سأله مَن أنت؟

قال الرجل: هل تظن أني مررت من هذا المكان أو التقيتُ بك صُدفة!، لا، فأنا أراقبك منذ مدة طويلة، أعرف أخبارك بالتفصيل، تلك كانت وصية والدك لي، عاش بطلاً ومات شهيداً، رحمه الله وأدخله فسيح جنانه، كنت أعرف أنك هنا قبل أن آتي لأقرأ الفاتحة على روحه الطاهرة، وكنت على يقين أنك ستعود إلى وطنك عاجلاً أو آجلاً لتكمل مسيرة والدك.. عرفت ذلك مذ قابلتك في المرة الأخيرة في بيروت..

لتعلم يا جلال أن الذي وشى على أبيك ما زال على قيد الحياة، ويقيم في القدس الغربية، ولا أدري من سيلتقي به أولاً أنا أم أنت!.

"أهلاً أبو جهاد"، قال جلال، وتقدم منه مصافحاً، وأضاف "كنت على يقين أني سألتقيك ثانية، لكن كيف عدت إلى الوطن!".

قال أبو جهاد أنه بعد أن خرج مع فصائل الثورة من لبنان، استقر به المقام في اليمن، وبعد توقيع اتفاقية أوسلو عاد إلى غزة، وقبل مدة استطاع الوصول إلى رام الله للمشاركة في دفن جثمان شقيقته..

في رام الله عاد لوضعه الطبيعي، وحمل السلاح ضد المحتل، اتهموه بالإرهاب وأصبح مطلوباً لهم من جديد، يعيش متخفياً حتى يوافيه الأجل، تارة في زي فلاح، وأخرى في هيئة شيخ، لا أحد يعرف أين يقيم سوى الله، ومع ذلك يقيم ومن معه من المقاتلين على كل شبر من أرض فلسطين، فلا وقت لديهم لانتظار المفاوضات، وأن لهم عيون في كل مكان.. وأضاف أنه ومن معه من المقاتلين "لن يجعلوا المحتل يرتاح حتى يستعيد الفلسطينيون حقوقهم كاملة"، وقبل أن يترك جلال أوصاه أن ينتبه لنفسه ويحافظ على والدته وأسرته، وأن لا يغادر أرضه ثانية.. وأضاف وهو يمد يده إلى جلال "خذ هذا المسدس، سينفعك في المستقبل"، ومد له بمسدس صغير كان بيده، طالباً منه أن لا يبحث أو يسأل عنه، فهو من سيجده دائماً، و "مصير الحي يتلاقى".. قال ذلك

وتراجع خطوتين إلى الوراء، واختفى عن عيني جلال كما ظهر له فجأة من قلب الظلام.

دقائق معدودة ظل جلال متسمّراً في مكانه، فجأة أخذ رأسه يدق مثل عشرات الطبول وهو يحدق في المصابيح البعيدة، تحسس المسدس الذي أعطاه إياه أبو جهاد، وشد عليه بقوة بين راحتيه، خالجه شعور غريب وهو يتذكر الرجل الذي وشى بوالده، فمنذ سنوات وهو ينتظر هذه اللحظة، لا بد أن يجد الواشي وينتقم منه.. تحرك من مكانه بحركة لاشعورية، ونظر إلى قبر أبيه ثانية، وفي تلك اللحظة عرف حقيقة والده كما كان حقاً، بعيداً عن ذكرياته الطفولية المحدودة.. فوالده حُرم من زوجته، كما حرم من أعز ما يملك في حياته، ألا وهو أولاده، وظل على عهده ريفي المنشأ والمعتقدات التي غرستها فيه تربيته، لكن ما أن رأى الخطر المحدق بأرضه ووطنه ورجال المقاومة، حتى اكتشف في أعماق ذاته رؤية واضحة لما يريد، وقوة كافية لتحقيق أهدافه، وتلك كانت لحظة الملء الحاسمة والمضيئة في حياته.. فرغم العذاب الذي كان يعيشه في سجنه، إلا أنه لم يتكلم عن آلامه وعذابه، بل قصر الكلام عن شوقه إلى معانقة أفراد عائلته، ورغبته في مأوى يلتئم فيه شمل الأسرة بعد تحرير الأرض وعودة الوطن، وطرْد الغاصب المحتل من أرضه.. آملاً بأن الأجيال القادمة ستتعلم الدرس من المأساة الحالية، وستجعل الحياة أفضل مما هي عليه.

لقد عاش والده من أجل السلام، زرع المحبة في قلوب أبنائه، كما زرعها في قلوب الناس، غرس بذرة المقاومة في وجه المحتل، كما غرس شتلة الزيتون وغاب في سجون الاحتلال.. "حدث جلال نفسه"، وأضاف: تلك جذوره التي دفع حياته من أجلها، مؤكداً أن قضية فلسطين لم تمت في عيون أبنائها، وإن إرادة المقاومة أقوى من سلاح المحتل.

ومع أن جلالاً عرف كل شيء عن والده، وعن رجال المقاومة.. إلا أن جزءاً واحداً بقي خارج امتحان قدرته، فبعض الخونة ما زالوا أحياء، ولم يكونوا أكثر من دمى في أيدي المحتلين بعد أن هجروا مكان إقامتهم، وأقاموا بين ظهراني أعدائهم، ويكفيهم الحقد وعذاب ضمائرهم إذا ملكوها يوماً، كما قالت له والدته ذات مساء، وعلمته أن لا يرد الشر بالشر، ويترك الشرير ليلقى عقابه من أفعاله.. ومع ذلك أقسم جلال أن يجد الواشي وينتقم منه، كونه المسؤول الأول عن عذاب والديه طيلة حياته، وصمم أن لا يلتقي بذلك الرجل إلا والمسدس في حوزته.. حبس أنفاسه، وبحركة لا شعورية شدّ ثانية بقبضته على المسدس، وراح ينصت لصوت المؤذن معلناً بزوغ الفجر، تمشى بخطوات متثاقلة نحو بيته، وقد غمره شعور عميق بالارتياح لكونه ما زال حافظاً لوصية والده والانتقام له، توضأ وصلى الفجر، وذهب إلى فراشه مباشرة، وأخذ يفكر بما سيفعله.

***

وحيدة، وجدت جليلة نفسها صباح اليوم الرابع، بعد أن انتهت أيام العزاء، حملت إبريق ماء وتوجهت إلى قبر زوجها، رشّت كومة التراب بالماء، وجلست تغني موالاً حزيناً بصوت يشبه التحدث مع النفس:

قبر الغريب رشوا عليه ميّه يوم الخميس قلّت زياراته
قبر الغريب كبوا عليه ميّه لا زارته ميمة ولا خيّة..

ومضى وقت طويل قبل أن تنهض بصعوبة وتعود إلى بيتها، جلست قرب الباب وعيناها مثبتتان باتجاه القبر، تجاوزت الشمس منتصف السماء وبدأت بالانحدار، وعاد الرجال منهوكين من الحقول ومن أعمالهم اليومية، وعلى الرغم من أن أنفاسهم كانت متقطعة بحيث كانوا لا يستطيعون الكلام، إلا أنهم وجدوا لديهم القدرة لمنحها نظرة تعبر عن مشاركتهم حزنها بالفقيد، ومثلما هبطت الشمس، هبطت آمال جليلة، وفقدت الأمل برؤية زوجها ثانية.

وحين يعود جلال بذاكرته إلى الوراء، يتذكر أمه وهي شابة وجميلة، كزيتونة الأمل والصبر والكفاح، طبيعتها المحبة، تعطي الثمار والنور، غير عابئة بالريح أو بمعاول المستوطنين وهم ينهالون عليها بفؤوسهم وجرافاتهم، شجرة مباركة، جذورها تمتد عميقاً في باطن الأرض، ودائماً تعرف كيف تنمو وترى النور من جديد.. وفي قرار نفسه يتساءل،

كيف تحولت تلك المرأة فجأة إلى عجوز ضعيفة يوم تم دفن زوجها، وكيف أصبحت أرملة بين ليلة وضحاها!.. يعرف جلال أن الزمن أكل من جسدها وشرب، ظهرت التجاعيد على وجهها، أصيبت بحالة اكتئاب كبيرة قبل وفاة والده، وعادت لا تأكل ولا تشرب إلا بالقدر الذي يسمح لها بالعيش، لكنه لم يتصور أن تُمحى بعض المعلومات من ذاكرتها، وهي تردد نفس الحكايات القديمة عن زمن شبابها، كان موت زوجها أكثر مأساوية من رحيلها عن الوطن، شعرت منذ وقفت على قبره إنها بلا حماية، انحبست دموعها في مقلتيها ساعات طويلة، وبدت مهزومة قبل أن تعود إلى بيتها بدموع مكبوتة، أخذت حفيدها ناجي الصغير بين ذراعيها واحتضنته، الفراق أدمى حنايا قلبها، لكن لا حيلة لها عليه، وبتلقائية علا صوتها مخالطاً دمع عينيها قائلة "ما لنا بعده إلا الصبر".. فجأة هطلت دموعها مثل سيل جارف، ضمت حفيدها إلى صدرها، ولم تعد تحاول القيام بأية مبادرة للسيطرة على حبات المطر المتساقطة من عينيها، ولأكثر من أربعة أشهر اعتكفت عن الأعين حزينة في ثياب حداد.

***

الواشي أقلق راحة جلال طيلة الليل، ظل صاحياً يفكر بكيفية الوصول إليه، ولا يدري ما الذي دفعه منذ الصباح للخروج من البيت، توقف قرب الشارع الرئيس وسط المخيم، رائحة الفلافل الساخنة والمخللات عبقت أنفاسه، نفذت إلى أقصى عصب الشم، لمخلل المطاعم طعم آخر غير طعم المخلل في البيت، "حدث نفسه"، ثمة بسطة لبائع كعك وبيض قريبة من المكان، مطعم شعبي يتناثر رواده على مقاعد خشبية على الرصيف، أمامهم صحون حمص وفول ومسبّحة وفلافل ورؤوس بصل، رائحة تسلمه إلى رائحة أخرى، مناقيش زعتر، توابل، رطوبة ومجاري.. انتحى جانباً وجلس على أحد المقاعد، طلب صحن فول وفلافل ساخنة، على مقربة منه كانت مياه عادمة تنساب في قناة مكشوفة، تسرح عيناه وتعبر ذاكرته مشاهد قديمة في مخيم آخر، مخيم قلنديا يكتظ باللاجئين، شباب عاطلون عن العمل، بعضهم يبحث عن رزقه اليومي في رام الله، وآخرون يتدبرون أمرهم للوصول إلى إحدى البيارات غرب القدس، يتحكم في قوتهم المقاولون ورجال الأعمال والسماسرة العرب، الذين ينقلونهم عبر حاجز قلنديا إلى القدس الغربية.

أطفال يرتدون ملابس رثة، ينبشون في حاوية قمامة، آخرون يجمعون علباً فارغة، دكاكين ومحلات تجارية شعبية تتوسط المخيم، نداءات باعة الباله تختلط بأصوات بائعي الخضار، جلهم يعرضون

بضاعتهم على بسطات ثابتة ومتنقلة في الشوارع الفرعية وأمام المحال التجارية، يتحركون وينادون بأصواتهم على المارة لجلب الانتباه لمعروضاتهم.. المعروضات ملابس قديمة وملابس مستوردة وأدوات منزلية وكل ما يحتاجه المرء في حياته اليومية، فواكه، خضار وأطعمة شعبية.. مشاة يتجولون، يتوقفون، يتفرجون، يفاصلون، يشترون أو يواصلون جولاتهم بهدوء.. عمال تزداد أعدادهم مع كل ساعة يبحثون عن عمل يومي، بعضهم يقف في عرض الشارع، وآخرون يجلسون على حجارة الرصيف قرب الجامع.. سيارات فخمة تجتاز الشارع العريض بسرعة، وأخرى تبطئ في سيرها، يهبّ بعض العمال من أماكنهم ويلحقون بها، لم تتوقف السيارة، يعودون ويجلسون في أماكنهم، يُخرج أحدهم علبة سجائر، يُشعل سيجارة ويقول لرفاقه: يبدو أن هذا اليوم نحس.. فيقول آخر: الله لا ينسى عباده، ويتابعون بنظراتهم السيارات المارة.

تتوقف سيارة على قارعة الطريق، يهب العمال مرة واحدة، يحيطون بالسيارة من كل جانب، يتراكض آخرون ويتجمعون حولها، يصرخ السائق في وجوههم "ابتعدوا عن السيارة".. يتحرك القريبون منه خطوتين إلى الوراء، يترجل السائق من السيارة، يقف قرب الباب، ينظر إليهم ويتفحص أجسادهم.. يقفون حوله وعيونهم مسلطة إلى شفتيه، وكل منهم يشير إلى نفسه: أنا، أنا.. بينما يقول أحدهم "أنا عندي عيلة

كبيرة، ومستعد أقوم بكل عمل تطلبه مني، المهم أشتغل وأجيب قوت أولادي".. لم يرد السائق، يهز رأسه ويشير بسبابته إلى ثلاثة عمال مفتولي السواعد، يقول: أنت، وأنت، وأنت، اركبوا في السيارة.. يصعد العمال في المقعد الخلفي وقلوبهم ترقص فرحاً في صدورهم، تلف وجوه الباقين الكآبة وخيبة الأمل، ويعودون يجلسون على حجارة الرصيف يشعلون سجائرهم تحت أشعة الشمس الحارقة حتى ساعات الظهيرة.

بعد ظهيرة ذلك اليوم، وجلال يجلس في مقهى قريب، فوجئ بآليات عسكرية تتوقف وسط الشارع، يترجل منها جنود الاحتلال ويقيمون حاجزاً على طرف المخيم، يوقفون السيارات، يفتشونها ويدققون في الهويات.. وسمع أحد رواد المقهى يقول بأن سلطات الاحتلال أغلقت حاجز قلنديا، وأن المعبر بدأ يشهد ازدحاماً خانقاً عند مناطق عبور المشاة ومناطق عبور السيارات، بعد أن أخذ الجنود يشددون التفتيش، ويأمرون المواطنين خلع معاطفهم قبل الدخول.. وأضاف أن المواطنين يتناقلون خبراً مفاده أن أحياء القدس الشرقية والغربية أقفرت، بعد أن طعن عربي أحد الجنود بمدية قرب باب العامود.

***

لليوم الثالث على التوالي اختفى العمال، وأخضع السكان العرب لمنع تجول قاس احتجزهم في منازلهم ليلاً ونهاراً، انتقاماً لطعن الجندي، وإذ راح أحد الجنود المظليين وسبعة من عناصر دوريته يتحركون بوجوه مكفهرة عبر الممرات الضيقة الملتوية في مدينة رام الله، ويسيرون بحذر في محاذاة الجدران، بدا واضحاً أنهم يشعرون بخوف والخطر يتربص بهم.. إذ كثيراً ما تعرض الجنود للرمي بالحجارة وقنابل المولوتوف، بينما كانت دورياتهم تجوب مدن وقرى الأراضي المحتلة أثناء منع التجول.

وكان يتناهى إلى مسمع الجنود من وقت إلى آخر، صفير ينبّه "الشباب العرب" إلى اقتراب إحدى الدوريات، ومع كل صفرة كان الجنود يحدقون إلى أعلى بحثاً عن حركة تدلهم على عربي يكمن لهم، كي يرمي أحدهم بحجر على رأسه، وهذا ما حدث فعلاً حين أصيب أحدهم في أحد الأزقة.. تناثرت الدورية وأشار أحد الجنود بيده صارخاً: "هناك على السطح"، وبدا في أعلى المبنى طفل يرمي عليهم الحجارة، وبلمح البصر انطلق الجنود نحو المبنى المؤلف من ثلاث طبقات، التف بعضهم لحماية المؤخرة في حين طرق جنديان باباً حديدياً بعنف.. صرخ أحدهما بلغة عربية ثقيلة: "دعونا ندخل افتحوا الباب".. فتح لهم رجل عجوز يجر قدميه متثاقلاً، فاندفع خمسة جنود يتسابقون صعوداً على السلالم، وعندما لم يجدوا أحداً على السطح، عادوا إلى الشقق يفتشونها واحدة واحدة، وأخيراً خرجوا يجرون فتى

هزيلاً، اقترب منه قائد الدورية وانحنى مسدداً سلاحه إلى وجهه قائلاً: "إني أعرف هذا المبنى وهذا الشارع، وإذا أمسكت بك ثانية، فلن آخذك وحدك، بل سآخذ جميع أفراد أسرتك"، وأطلق سراحه مقراً بأن تهديده غير ذي نفع، لكنه أضاف لأحد أفراد دوريته "قد نخيفه قليلاً، يجب أن نريهم أننا غير خائفين، فنحن المسيطرون هنا"، فقال الجندي بتذمر "لقد جربنا كل الوسائل لوقف عملياتهم وقمع شكيمتهم، ولم نفلح، إنهم كالأشباح، يظهرون لنا من كل مكان".. فرمقه قائد الدورية وقال "آخر الدواء الكي، سنهدم بيوتهم ونشردهم".

- لكن النساء يحضن أولادهن ويتربعن وسط البيوت.

- سنرغمهن على المغادرة، وإن رفضن سنهدم البيوت فوق رؤوسهن ورؤوس أولادهن.

وما أن وصل جنود الدورية نهاية الشارع حتى حاصرتهم حشود غاضبة، وقفت في وجوههم.. أطلق الجنود النار في الهواء ليفتحوا منفذاً لهم، ثم أطلقوا الرصاص المطاطي والقنابل المسيلة للدموع عليهم، لكن المجموعة لم تتفرق، ولم يستطع الجنود أن يسيطروا على الموقف إلا بعد أن طلبوا قوات إضافية.

فجر اليوم التالي، صحا سكان البناية على صوت طلقات نارية كثيفة، تقاطر المواطنون ليشاهدوا مجموعة من الآليات العسكرية المليئة بالجنود، تحيط ببيت مكون من طابقين على مقربة من البناية ذات الثلاثة

أدوار، وعبر مكبرات الصوت طلبوا من أحدهم النزول من البيت، مستسلماً رافعاً يديه للأعلى، وحين لم يستجب أحد من سكان البناية للنداء، انهال القناصون على الطابق العلوي بزخات من الرصاص، فتحوا ثغرات كبيرة في جدرانه، وصيحات مكبرات الصوت تحاصره وتطلب منه الاستسلام، لكن "المطلوب" لم يستسلم، زحف بين جدران البيت، وسُمع صوته يتحدث مع رفاقه بصوت مرتفع "إذا كان لا بد من الموت سأموت بشرف بعد أن أقتل أكبر عدد منهم".. ومن خلال نافذة صغيرة أخذ يطلق النار، مفضلاً الموت على الاستسلام للجنود حياً..

بعد أكثر من نصف ساعة من تبادل إطلاق النار، توقف إطلاق الرصاص، وعندما اقتحم القناصة البيت وجدوا جثة الرجل المطلوب هامدة مع اثنين من رفاقه، بينما قُتل أحد الجنود وأصيب آخران.. فرّق الجنود المحتشدين في الشارع، وأفرغوا البيت من ساكنيه، وقبل أن يغادروا المكان، حملوا الجثث في آلية عسكرية، بينما تقدمت جرافة كانت تقف على مقربة منهم، انهالت بخرطومها وبأسنانها الفولاذية على البيت تسويه بالأرض، وأسرعوا خارجين من المكان تحت حراسة مشددة، والحجارة تلاحقهم وتتساقط عليهم، كأنها حجارة من سجيل ترميها طيورٌ أبابيل.

زفر جلال وعاد بذاكرته إلى الوراء، شعر أنه يعيش غريباً في وطنه، تذكر بيته والجنود ينقضون عليه فجراً، والدته تتشبث في أرضية البيت وتصرخ، والجرافة تمشط البيت بأسنانها الفولاذية حتى صار ركاماً فوق ركام.. شعر أن الأحداث تتكرر مع بعض التبدلات الطفيفة، فالجميع يشعرون بكراهية المحتل، بالصبر والمعاناة، والصمود بالطريقة ذاتها، الجميع متساوون تحت الجلد.. وعلى الرغم من المسافة التي تفصل بين اعتقال والده وهدم بيته، ورحيله مع والدته إلى الشرق، فإنه يتذكر الأحداث كحادث واحد، وظلت الحوادث مترابطة في ذاكرته دائماً، إنه بداية الانكسار الذي وضع نهاية للمرحلة السعيدة من طفولته.

***

الأمور لم تتغير بعد، "حدث جلال نفسه"، ما زالت على حالها.. مستوطنون وجنود احتلال وأوامر وجرافات، هدْم بيوت وقتْل وتشريد.. احتلال واغتصاب، ومحتلون لا تنفع معهم المفاوضات ولا المقاومة السلمية أو الوساطات الدولية، المقاومة هي السبيل الوحيد لتحرير الوطن وإقامة الدولة الفلسطينية، وضغط على شفته السفلى بأسنانه مردداً ما قاله أحد القادة العرب يوماً "ما أُخذ بالقوة لا يُسترد إلا بالقوة"، وردد في سريرته "ما حك جلدك مثل ظفرك.. وإذا لم يعتمد الشعب الفلسطيني على نفسه، ويحرر أرضه بسواعد رجاله، فلن

تقوم له قائمة".. وراح يردد في أعماقه كمن يردد مقاطع لأغنية قديمة، المقاتلون يترصدون للجنود، والجنود يطاردون الأهالي، الأهالي يرعبون المستوطنين، والمستوطنون ينتقمون من الفلاحين، الفلاحون يطاردون الأرض، والأرض تطارد شجر الزيتون، شجر الزيتون يطارد السياج، والسياج يطارد المستوطنات، المستوطنات تطارد الطرق، والطرق تطارد الجسور، الجسور تطارد الجبال، والجبال تطارد السحاب، السحاب يطارد الحقول، والحقول تطارد الفلاح، الفلاح يطارد الفأس، والفأس تطارد لقمة العيش، لقمة العيش تطارد الفلسطيني، والفلسطيني يطارد المسكن، والمسكن تطارده جرافات المحتل.

***

مساء أحد الأيام، وعلى مقاعد متقاربة، جلس رواد أحد المقاهي وسط مدينة رام الله، يلعبون الورق، يدخنون ويشربون الشاي، يتحدثون عن الماضي وما آلت إليه مصائرهم، ويتذمرون من الحاضر والمستقبل..

على مقربة منهم، جلس ثلاثة من الصحفيين والمراسلين، ينتظرون جلال الذي وعدهم باللقاء في المقهى، يتحدثون وعيونهم تتابع شاشة التلفاز.. المقهى يغص بالرواد، وثمة مؤتمر صحفي لأحد قادة جيوش دولة عظمى، يتحدث باللغة الإنجليزية عن الوضع في العراق

وأفغانستان، والشاشة الفضائية تترجم ما يقول باللغة العربية مباشرة.. يرتكز القائد على منصة خشبية ويتحدث لرجال الصحافة متسائلاً: لا أفهم مقاومة وتعنّت هؤلاء الشرقيين، كيف لم يعرفوا حتى الآن أننا أكبر قوة عسكرية ساحقة في التاريخ!، نحن ننتصر بالطبع، خسائرهم كثيرة، حسب التقديرات الرسمية لم يبق أحياء من طالبان والقاعدة، والذين يطلقون النار على جنودنا أشباح.. إنهم مقتنعون بأنه يكفي بعض الجهد لينهزم هؤلاء البشر الوهميون إلى الأبد، أو ليبادوا عن وجه الأرض..

هذا ما كان يؤكده الجنرال في التلفزيون، بينما أظهرت كاميرا من خلفه صفوف أكياس بلاستيكية مليئة بجثث الجنود الأمريكيين، تنتظر على أرض المطار عودتهم إلى مدن الوطن، أناشيد، أعلام، استعراضات، وجوه تختفي في الصفوف، أرقام بلا وجوه، بلا ماض ولا مستقبل، وشباب من دعاة السلام والمحتجين يحرقون في الشوارع الأعلام الأمريكية والإسرائيلية..

صرخ أحد رواد المقهى ممن يلعبون الورق على النادل: أغلق التلفزيون، سئمنا من كلامهم الفاضي.. يتباهون بقوتهم، ويسكتون عن أسماء قتلاهم، وما من قائمة بمشوهي الحروب روحياً أو جسدياً..

أردف الرجل الذي يجلس جانبه: يتناسون القضية الفلسطينية الأساس، ويتحدثون عن العراق وأفغانستان، وكأنهم لا يدرون أن

جميع الأحداث التي تعاقبت على العالمين العربي والإسلامي، أتت مباشرة أو غير مباشرة للنكبة الفلسطينية..

قاطعه رجل آخر: النكبة! دائماً سبب بلايا العالمين العربي والإسلامي النكبة الفلسطينية! حتى احتلال افغانستان سببه النكبة! نسيت القاعدة وأحداث الحادي عشر من أيلول؟.

- الكل تاجر بالقضية الفلسطينية، أصبحت القضية الفلسطينية مثل قميص عثمان، يذكرونها دائماً، ولا يفعلون من أجلها شيئاً.

- الطبخة إذا كثر طباخوها بتشيط.. وطباخو القضية الفلسطينية كل حكام ورؤساء العالم.. كل يوم نسمع تصريحاً رناناً، وكل ساعة نقرأ خبراً يبشرنا بالعودة.. نعيش منفانا ونتنظر عودة قد تأتي أو لا تأتي..

- لا تقطع الأمل يا رجل، مَن ينتظر أفضل من اليائس.. أما سمعت المثل "وعدوني بالحلق.."، المهم أن تبقى القضية في الوجدان.

- على رأيك الريحة ولا العدم.. أما الصحيح، ولا يصح إلا الصحيح، لا يحل القضية الفلسطينية غير أهلها، ما بحك جلدك مثل ظفرك، وأولاد البلد أدرى بشعابها.. وغير ذلك كله كلام فاضي.. وردد موالاً يحفظه عن ظهر قلب:

"يابا ليه الزعل بكره الزمن يعود..

مجلس الأمن كله أكاذيب ووعود".

- يلعن السياسة شو حبالها طويلة، السياسة صف حكي كذب في كذب، اتركنا منها وخلينا في لعب الورق.

نظر أحد الصحفيين إلى ساعته وقال: تأخر جلال عن موعده..

قطع صوت النادل استرساله وقال: ماذا تطلبون أيها السادة؟

- قهوة حلوة.
- ليس لي، أنا أريد قهوة سادة.
- وأنا قهوة وسط.

وسمعهم جلال الذي انضم إليهم تلك اللحظة، فقال: وأنا أريد شاياً مع سندويش، فأنا لم آكل شيئاً منذ الصباح، وجذب مقعداً من مكان قريب قائلاً لأحدهم: افسح لي مكاناً فأنا أريد أن أجلس إلى جوارك.

تدخّل أحد لاعبي الورق ممن يجلسون على مقربة منهم وقال لجلال: يظهر إنك مثلي تعاني جوعاً مزمناً.. وضحك مع الآخرين.

تشعب الحديث بين المجموعتين.. قال أحدهم مخاطباً المجموعة بعد أن عرف أنهم يعملون في الصحافة: يقولون إن السلطة مصممة على إجراء الانتخابات، وأريد أن أعرف إذا كان هذا الخبر صحيحاً؟

ردّ الذي يجلس بجانبه: وما يهمك من هذا الأمر!؟.. وأي انتخابات تتحدث عنها في ظل الاحتلال!.. أنا غير متحمس لمثل هذه

الأمور، لقمة العيش أهم من كل الانتخابات.. وحاول أن يخفي القلق الذي يحس به.

جاء النادل بطلباتهم، كان يرتدي سترة بيضاء وعليها اسم المقهى مطرزاً بخيوط حمراء، يدندن بصوت مسموع "أهل الدار انقسموا قسمين، يا سادة صرنا نصين، والدرب صار دربين"..

وضع فناجين القهوة على الطاولة، ودارت عيناه في أرجاء المكان، وفمه يتمتم بنفس الموال.. انحنى ينظف الطاولة مُرحباً بزوار المقهى بصوت مسموع، وهمس في أذن أحدهم: عملية في كريات أربع، انفجار في القدس، إطلاق صاروخ من قطاع غزة على مستوطنة..

- لا، لا، تهمني أخبار الغلاء وأسعار الطحين والزيت.
- لا جديد.. كل شهر غلاء في الأسعار وزيادة في المستوطنات.
- البركة في أمريكا والمبادرات الكذابة.
- خلينا في أكل العيش، اترك السياسة لأهلها والعب قبل ما تكبس الدورية علينا..
- في سنوات سابقة كانت كلمة "جنود" تصيب المقهى بالسكتة والرعب، يتوقف كل شيء، الضجيج، الكلام، الضحك، لعب الورق، ويد النادل.. أما اليوم فلم يعد يخافهم الناس، ولم يعد ينتبه لمجيئهم أحد.

- اللي يجيب سيرة العفريت يطلع له.. علق أحدهم، وقبل أن ينتهي من جملته اندفع جنديان إلى الداخل، بينما وقف آخران قرب الباب، يصوبان فوهات بنادقهما نحو الجالسين في المقهى.. لم يتحرك أحد من مقعده، وظل صوت النرد مسموعاً على طاولة الزهر.. طلب أحد الجنود من صغار السن إبراز هوياتهم، ثم دار بين الجنود حديث بلغة غريبة..

سأل أحد الجنود النادل: أنت بتشوف مخربين؟.

- أبداً، مفيش مخربين.

- أنت ولد كذاب، ثم أشار إلى أحد الجالسين وقال له: أنت، أرني هويتك؟، وقبل أن يدقق في بطاقته كبله الجندي الآخر، وخرج به معصوب العينين يفترش أرض السيارة الحديدية، والبنادق تتجه نحو رأسه.

دقائق عدة ساد المقهى هدوء غير معتاد.. قطع النادل حبل الصمت الذي خيم على المكان وقال: عملية استفزاز، غداً يعود بعد التحقيق معه، يحاولون إثبات وجودهم بشتى الطرق.. وراح يدندن "يا سادة صرنا نصين، وخالتي وخالتك تفرقوا من سنتين".

خبط أحد الجالسين الطاولة بيده وقال بصوت عالٍ: منذ عام النكبة والفلسطيني كلما رفع رأسه يتلقى ضربة جديدة.

- المحتل تعدى الخطوط الحمراء، اغتصب الأرض، ودفعنا إلى الحرب والانتفاضة المسلحة، متناسياً أن القط الأليف إذا داهمه الخطر، يغرز مخالبه في وجه عدوه. قال أحدهم.

- لكل ظالم نهاية، الحياة دولاب يدور ويقول لا شيء يدوم على الأرض غير الحب والسلام.. لقد ولدت دولة الصهاينة وهي تحمل كفنها على كتفها. أضاف آخر.

سحب أحد لاعبي الورق نفساً من نرجيلة أمامه وقال: موال كل يوم.. اتركونا منهم، ولنعد إلى حديث الانتخابات التي تقلق الجميع هذه الأيام.. فالصحافة لها دور مميز، والوقت ليس في صالحنا، علينا أن نتخذ موقفاً واضحاً..

قاطعه آخر: أعرف أن الصحفيين يمثلون شريحة معينة، وصوتهم له دور فاعل ومهم في رأي الناس.. لكني أعتقد أن كل شخص يمثل نفسه في الانتخابات، وينتخب من يريد.

- لهذا علينا أن نكوّن رأياً نقنع به الناس، وتسمع به السلطة الحاكمة. رد أحد الصحفيين.
- كأنك نسيت أننا نعيش في البلاد العربية، يعني دول العالم الثالث، وفي هذه الدول الحكومات لا تسمع غير صوتها.
- بالعكس، في هذه الدول، الحكومة تعرف كل صغيرة وكبيرة عن مواطنيها، فكيف ونحن نعيش تحت الاحتلال!.

- الشعب الفلسطيني هو الوحيد الذي ما زال محتلاً في العالم، وأرض فلسطين هي الوحيدة التي ما زالت تقبع تحت الاحتلال.
- لهذا نحن في حالة استنفار دائم حتى ندحر المحتل، ونحرر الوطن.
- قبل ذلك يجب أن نحرر أنفسنا، ونطهر الشعب من العملاء الذين ينقلون كل صغيرة وكبيرة إلى المحتل.
- مجرد كلام، إذا لم تتحول الأفكار إلى عمل، ستبقى فقاعات في الهواء، الكلام لا يحرر الأرض ولا يطرد العملاء إذا لم يقترن بالعمل.
- لكن المفكر له دور كبير في المجتمع، ينوّر الناس ويخرجهم من العتمة والظلمات، يضع النقاط على الحروف، ويبين الأبيض من الأسود.
- لا تنس أن بعض الصحفيين باعوا أنفسهم للأنظمة الحاكمة، وصاروا يقلبون الحقائق، صاروا عيوناً للحكومة.
- العيون في كل مكان، حتى داخل الأسرة الواحدة، فكيف في الشوارع والمقاهي، حتى الانترنت، الفيس بوك والتويتر ومواقع التواصل الاجتماعي مراقَبة.
- يا رجل صار لكل شخص اسمين، ضاع بين اسمه الحقيقي واسمه الحركي، ولم يعد يعرف موقعه بين الاسمين، التبس عليه الأمر في حياته وفي مماته.

- هذا من كثرة الانقسامات، والخوف من الأعداء، الواحد لم يعد يعرف عدوه الحقيقي.. هذا من منظمة وذاك من جبهة، وآخر من فصيل ثالث أو رابع..
- لا يهم من أي فصيل، المهم أن تتجه كل البنادق نحو المحتل، ويكون المبدأ تحرير الأرض.
- أنا معك في هذه النقطة، الأخوة يتقاتلون، وطالما الخلاف حول كيفية التحرير فلا ضير في ذلك.
- غداً يتصالحون ويكوّنون جبهة نضال واحدة.. المهم المبدأ والحرية..
- تتحدث عن الحرية ونحن في سجن كبير!، كمن يتحدث عن الصحة وهو راقد على سرير في المستشفى.
- كما قلت لك، المهم المبدأ والإخلاص في النية.
- أعرف رجالاً كانوا يخلصون النية لوطنهم، أصبحوا بعيدين عن الوطن، بعضهم يقبع في أقبية مظلمة في سجون تحت الأرض، وبعضهم رحل إلى مقابر جماعية، أما الآخرون فقد هاجروا، وصاروا يؤلفون كتباً عن الحرية وهم ينامون في فنادق خمس نجوم.
- وأنا أعرف كثيراً من السياسيين يطلقون في النهار تصريحات رنانة لصالح الثورة، وفي الليل يسهرون مع ضباط الموساد في مواخير

حيفا أو تل أبيب، ينسون القضية وعدالتها وهم مع بنات الليل، بينما يتكدس آلاف الأسرى في سجون الاحتلال.

- لست أعمى، أعرف أن الفساد استشرى بين السياسيين، إنهم يمارسون على الشعب التضليل بشتى أشكاله، لعبة قذرة وسيحاسبهم الشعب يوماً ما على أفعالهم.
- إنهم يبيعوننا أحلاماً زائفة يقبضون ثمنها سلفاً، ليجعلونا لا نرى واقعنا المزري..
- تلك الحفنة ليست مثالاً يُحتذى به، الجيل الجديد بدأ ينعتق تدريجياً من هذا الحلم المخدر الذي يحقنون به عقول الشعب.
- إلى متى ننتظر!؟، عيش يا حمار.. قصص الفساد عششت، وتدور على كل لسان.
- صدقت، فقد تغيرت الأحوال، وساد الفساد في الأرض، حتى الأشجار لم تعد تطرح ثماراً كما كان الأمر من قبل، كما لم تعد أشجار الزيتون تطرح زيتاً وزيتوناً بعد قطع سيقانها المثمرة..
- هذا لا يهم، المهم إنهم لم يستطيعوا اجتثاث جذورها من الأرض، وطالما الجذور باقية فلا بد أن تعود سيقانها إلى النور، تورق وتثمر من جديد.. أجيال تتوالد كما الشباب يتجدد دائماً.
- ونسيتم العقيدة!، "قاطعه أحد الملتحين ممن يستمعون للحديث"، العقيدة أهم عنصر في هذا الموضوع.. تحرير الأرض لا يأتي بقوة

السواعد فقط، العقيدة لها الدور الأكبر في ذلك.. حان موعد صلاة العشاء، عليكم أن تقوموا للصلاة، وتدعو الله لينصرنا على أعدائنا.

- معك حق يا حاج، السواعد وحدها لا تكفي، صلّ وادعُ لنا بالنصر، فلا يزال ثمة أمل في تحرير فلسطين، وفيها شباب وشيوخ يتحدثون على هذا النحو.
- نسينا موضوع الحديث الذي اجتمعنا من أجله، نسينا موضوع الانتخابات ودرنا في فلك آخر. قال الذي طلب القهوة السادة.
- أنا لا تهمني الانتخابات، وعلى استعداد أن أموت في سبيل مبادئي.. الموت لا أهمية له عندي، سوف أموت حين يشاء الله، المهم أن تتغير الأحوال وتسود الديمقراطية وحرية الرأي، ويحاسب الفاسدون على فسادهم، بذلك يكون موتي حياة لمن بعدي. ردّ عليه آخر.
- إنك تسعى لحتفك، لسانك سيقتلك في يوم ما، أخفض صوتك حتى لا يسمعك أحد.
- ماذا تقول يا رجل!، لا يقطع الرأس غير اللي ركّبه.. أنا شاركت في معركة جنين وفي المظاهرات وفي التصدي لجنود الاحتلال، ولي الحق في الكلام والصراخ أيضاً، لا أخاف إلا من الله، أخي قاتل في جنوب لبنان واستشهد، وأنا ما زلت أحمل السلاح، لا يهمني

التاريخ المكتوب أو الذي سيُكتب، ما يهمني هو ما جرى لعائلتي ووطني، أخي استشهد في سبيل فلسطين، ووالدي يقبع أسيراً في سجونهم، ونحن هنا جالسون ننتظر المفاوضات.. أي انتخابات تتحدثون عنها في ظل الاحتلال!

- نحن نقول ما نشاء، والحكومات تفعل ما تشاء. قال الرجل الذي طلب القهوة الحلوة.
- أي حكومات تقصد؟ حكومات الدول العربية أو حكومة السلطة، أو الاحتلال؟
- دائماً تحرّف الحكي عن معانيه، وتخلط الحابل بالنابل، مالنا ومال الحكومات العربية!.
- اعتقدتُ أنك تقصد الحكومات العربية، أي يكفي الشعب الفلسطيني فخراً أنه يقف في ميدان الدفاع عن شرف الأمة وكرامتها، وإنه عاش على مدى ستة عقود مضت ضيفاً محترماً رافضاً التوطين، أو إقحام نفسه في الشأن الداخلي لأي بلد عاش فيه، نتيجة تشريده وتهجيره القسري من وطنه بقوة السلاح، والمؤامرات الغادرة التي حيكت ضده من الأعداء والمنافقين من بني جلدته، وما زال ينتظر بفارغ الصبر عودته إلى دياره وأرضه حراً في دولته المستقلة، وكاملة السيادة على ترابه المقدس.

- كفانا صف كلام، أنت عملت محاضرة من كلمة!، خلينا في موضوعنا..
- يا رجل "رضينا بالهمّ، والهمّ ما رضي فينا"، تقلصت أحلامنا ورضينا بالتقسيم، تنازلنا عن المطالبة بكل أرض فلسطين، وصرنا نطالب بالأرض اللي احتلوها في حزيران، يعني أقل من نص فلسطين، ومع ذلك "ذان من طين وذان من عجين"، لا بيرحموا ولا تاركين رحمة ربنا تنزل..
- شو بتقول!؟ والله لو رجّعوا كل الضفة ما بتنازل عن شبر من قريتي غرب القدس، فلسطين كلها للفلسطينيين من البحر حتى النهر، الشطارة لمن يصمد ويصبر أكثر، وطالما في أم فلسطينية بتحبل وبتخلّف، ما بننسى حقوقنا، و"لا يموت حقّ وراءه مُطالِب".
- يسلم البز اللي رضّعك، هذا الكلام الصحيح.. قال أحدهم بصوت مرتفع.
- قال بدهم يعطونا دولة منزوعة السلاح بلا حدود وبلا جيش، ونصها مستوطنات.. "مجنون يحكي وعاقل يسمع".. "زمن أغبر".

فجأة دلف المقهى مجموعة من الرجال في صمت وقطعوا استرسال المتحاورين، انتحى ثلاثة منهم جانباً وركنوا قرب طاولة قريبة، بينما

وقف اثنان قرب الباب، يبدو أنهما حارسان لأحد الرجال.. تناول رجل قصير القامة نوعاً ما إعلاناً مطبوعاً من جيبه ونظر إليه، قائلاً لمن يجلسون حوله بأن الانتخابات على الأبواب، ثم جال بنظره على رواد المقهى وأضاف على مسامعهم: أعتقد أننا لن نجد أفضل من هذه الحكومة، كما لن نجد أفضل من هؤلاء النواب الذين انتخبهم الشعب بشفافية وديمقراطية، يقولون إن عمليات تزوير وقعت، وتم شراء أصوات الشعب، لكن المعارضين لم يثبتوا أقوالهم، فدعوهم يتقولوا ما يشاؤون.. المهم أن يسود النظام.. ثم ما بال البعض يريدون انتخابات جديدة وإسقاط الحكومة قبل انتهاء مدتها؟، النظام شكل من أشكال التقدم، وعلى الجميع احترام النتائج، وبوصفنا مواطنين أحراراً، ورجالاً نقف في صف الخير ونعادي الفوضوية، فإننا نعلن أن الخير في إبقاء الحكومة، أو إعادة انتخابها من جديد.

وتساءل وهو يقلب ناظريه بين الجالسين في المقهى وبين المنشور الذي بين يديه: لماذا نخاطر بسفينة الحكم في بحار مجهولة، حين يكون قائماً على دفتها حاكمٌ حرٌّ ديمقراطيٌّ، أصر النواب أن يبقى رئيساً مدى حياته.. إن مجرد وجود أشخاص آخرين في هذه المناصب، يصل إلى حد التعرض لمصير الأمة الذي هو مصيرنا أيضاً.. ونظر إلى رواد المقهى ثانية وأضاف يخاطبهم: أيها الأخوة، إذا كان لا بد من انتخابات

جديدة، فإن صناديق الانتخابات تنتظركم، انتخبوا رئيس الحكومة، المرشح الذي انتخبه الشعب وأولاه ثقته.

أثارت كلماته نوعاً من الامتعاض في نفوس الجالسين على المقهى، بينما تحمس لها الجالسون حوله، وانبعثت صيحات وتصفيق من الواقفين قرب الباب، ونهض رجل من الجالسين قربه جامد العينين، طويل القامة، يرتدي ملابس منشاة، قائلاً "أيها الأخوة، إني أتحدث بصفتي مواطن وطني، ولست ممن اتخذ السياسة معاشاً.. إنني أؤمن إيماناً موضوعياً تاماً بأن هذه الحكومة أفضل من الحكومات السابقة، وأفضل من الحكومة القادمة من المجهول، التي لا نعرف عنها شيئاً.. فلماذا نسمح بنقل أعنة الحكم إلى مواطنين عاديين لا يعرفون كيف يديرون البلاد!.. ولو قلنا جدلاً أنهم يتمتعون بكل الخصال الحميدة، ويفقهون في السياسة، فلا بد أنهم سيبدؤون من الصفر.. لكن حكومتنا قطعت أشواطاً طويلة في هذا المضمار، وخاض نوابها التجربة، فلماذا نأتِ بنواب أو بحكومة تبدأ من الصفر!".

تعالت الأحاديث الجانبية، وهمس أحد الجالسين في ركن قريب لجاره: وكأن هذا الرجل يحاول إقناعنا بأن جيوب الوزراء ورجال الحكومة امتلأت، وأخذ كل فرد نصيبه من الرشوة والفساد، ولم يعد عنده أقرباء عاطلين عن العمل، فلماذا يأتون بغيرهم ليبدؤوا بالنهب من جديد.. لم يعد هناك أموال في الخزينة، انتقلت الأموال إلى حساباتهم

البنكية.. أما الجدد فسيفرضون ضرائب إضافية على الشعب، ويتفننون بإيجاد مشاريع باهظة التكاليف موهومة، يثقلون بها كاهل الأمة لفتح حسابات جديدة وملء خزائنهم.

ما أن خرجت المجموعة من المقهى حتى احتدّ أحد الجالسين وقال بصوت مرتفع: هذه مهزلة، إنهم يدخلوننا في متاهة حرب أهلية، وأنا لن أوافق على ما يحدث ما دمت حياً، ليس هناك ما يبرر أن يقتتل فصيلان من أجل كرسي أو سلطة، الوحدة والحوار والمصالحة أولاً وأخيراً قبل كل شيء، هدفنا تحرير الوطن من المحتل، وإقامة الدولة الفلسطينية.. كاد شعبنا يفنى بسبب الحروب التي خاضها منذ عشرات السنين، والهجرات الجماعية والتشرد في البلاد الواسعة، كفانا تشرذم وشعارات كاذبة.

وعلق الذي طلب القهوة "الحاكم يطارد رئيس الوزراء، ورئيس الوزراء يطارد الوزراء، الوزراء يطاردون النواب، والنواب يطاردون الشعب".

وأضاف جلال "والشعب يطارد لقمة الخبز، والخبز يطارد القمح، والقمح في أمريكا.. وأمريكا بيدها كل المفاتيح، القمح والحرب والسلام والمفاوضات والمؤامرات".

***

كرس جلال جل وقته لتحري ظروف اعتقال والده، ولأشهر طويلة ظل يبحث عن الواشي، إلى أن عرف مكان إقامته.. كان منزل الواشي يتكون من طابقين في القدس الغربية، يحيط به سور عالٍ وبعض الأشجار.. راقبه جلال مرات عدة، لكنه لم يستطع الولوج إليه.

ذات مساء، عاد جلال إلى بيته تعباً، صامتاً وقلقاً، تناول طعامه وألقى بنفسه على السرير، جاءته ياسمين في بياض عروس، تفوح منها رائحة الأزهار مثل نسمة رطبة، ابتسمت له ورقدت جانبه.. اختلس النظر إليها، ثم رفع رأسه، ونظر في عينيها، أسبلت جفنيها وابتسمت ثانية، فتح فمه ليتكلم، لكنه لم ينبس ببنت شفة، أثقله النعاس، ضمها بين ذراعيه، وغاب في سبات قلقه..

رغم برودة الجو وتساقط مطر خفيف في الليل، إلا أنه استيقظ على نور الشمس يتسرب من شقوق النافذة، استمرت ياسمين إلى جانبه تغالب نعاسها، صدرها يفيض إلى أعلى ووجهها مغموم.. تسلل عن السرير، ومضى يبلل وجهه من الصنبور، نهضت بجهد، واتجهت إلى المطبخ تعد له طعام الإفطار.. لحقها إلى المطبخ، كان الخبز والجبن ومربى السفرجل على المائدة، شرع في تمرير المربى على قطعة خبز، وبصمتٍ عميق نظر إليها وهي تقدم له فنجان القهوة بشوق وحنان، تلاقت النظرات، لا تدري لِمَ تولّد حُزْن بلا سبب في أعماقها، كان فقط

هاجس، تخمين، غريزة المرأة التي لا تخيب أنبأتها أنه مقدم على أمر ما، هذا ما قرأته في عينيه، ومع ذلك لم تسأل، وهو أيضاً لا يستطيع الإجابة.

أخفت وجهها جانباً ومسحت الدمعة التي طفرت من عينيها، ضغطت على شفتيها كيلا تجهش في البكاء، وهي تختلس النظر إليه.. شرب القهوة على جرعات ونهض، خطا بعض الخطوات نحو الباب، عاد ووضع يده على خصرها، أحس برعشة تسري في جسدها، قبلها من جبينها وقال: لا تخافي، سأعود بإذن الله.. وخرج بسرعة.

اتجه إلى مكان عمله في رام الله، لساعات طويلة ظل صامتاً لا يتحدث مع أحد، تحسس مسدسه الصغير الذي يخبئه تحت إبطه، وقبل غروب الشمس غادر مكتبه، استقل سيارة صغيرة وقصد مدينة القدس، اجتاز حاجزاً ووصل القدس الغربية، وسيراً على الأقدام راح يخطو خطوات ثابتة واثقاً من تنفيذ مهمته، دار في شوارع فرعية وعيناه تحدقان في كل صغيرة وكبيرة، ثم قصد الشارع الذي يقوده نحو هدفه.

ثمة ظلال ليلية وضباب كالدخان الأسود متموج في الشارع، يستر أشجار الرصيف، وينحسر عنها مع هبات الريح فوق عرض الشارع.. الإسفلت مبتل، والسماء متلبدة على وشك الهطول، وعلى الأفق فوق البنايات الداكنة وهج من أضواء المدينة يتسلل بين الغيوم، ومدخنة تترك دخانها للريح لتمزجه مع الذرات المائية السابحة في الهواء.

مصطنعاً اللامبالاة عبر جلال الشارع، تقدم واثق الخطى محتمياً بالجدران، تحسس ثانية مسدسه تحت سترته.. تطلع عبر الأضواء من جديد، الطريق مغلق.. حاجز وآلية عسكرية وجنود.. توقف مذعوراً، حدث نفسه "لا فائدة ستقع في أيديهم"، زاغ واحتمى بجدار.. سمع أصوات رجال مجهولين في الظلمة المنسدلة، لم يتحرك، تحركت السيارة العسكرية وتراكض الجنود نحو الرجال، علت الأصوات، انطلقت طلقات نارية، قفز أحد الرجال فوق سور ودخل عمارة لم ينته العمل فيها، تسلق سلماً وقبع وراء نافذة.

كالفراشات تطايرت أوراق الأشجار أمام مصباح الشارع، أخذ هبوب الريح يشتد ويقوى، ورسم البرق مرات عديدة ظلالاً زرقاء على وجه جلال الدائري، هطلت السماء، تساقط رذاذ خفيف بارد من المطر، وأسرع المارة القليلون في تلك الناحية، وقد سيطر عليهم جو من الكآبة والصمت، رافعين ياقات معاطفهم إلى الأعلى، داسين أيديهم في جيوبهم، انتفض جلال وتوجه مباشرة نحو عمارته المنشودة، كان ثمة طعم كريه في فمه، حدّق في زاوية معتمة قرب الباب وبصق بين قدميه.. قرع الجرس، فتحت له الباب امرأة مكتنزة في أواخر الثلاثينات، ذات شعر صبغ بلون الحناء، وقادته إلى غرفة جلوس فسيحة.

على نحو مسرحي، ظهر رجل عجوز، قصير القامة ضعيف البنية، يتوكأ على عصا بنية اللون، بشرته سمراء وشعره ضارب إلى اللون

الأبيض، يلبس ثوباً حريرياً غامق اللون، وبدا أنه يحافظ على قوامه، رغم أنه تجاوز السبعين من عمره، سأله "ماذا يمكن أن أفعل لك؟".

صمت جلال لحظة، ولا يدري كيف خطر على باله أن يسجل اعترافاً من غريمه على ما اقترف من جرائم بحق مواطنيه.. نظر إلى وجهه مباشرة وقال إنه يحتاج إلى معلومات وآراء من أجل كتاب يعده حول رجال المقاومة، ومحاكمة القضاة للأسرى قبل حرب حزيران..

نظر إليه العجوز بهدوء وريبة، قال إنه لا يعرف شيئاً عن تلك الفترة، وكل ما يعرفه أن المحاكمات كانت سرية، ولا دخل له في مثل هذه المواضيع، فقال جلال "عرفت أن محاكمات مدنيين جرت أمام المحاكم العسكرية، وقيل لي إنك كنت طرفاً فيها".

صمت العجوز لحظة، أمعن النظر بجلال، وأجاب وقد بدا عليه الانزعاج "لقد أخطأ من قال لك هذا".

بقي جلال هادئاً، مد يده إلى جيبه وتناول دفتراً صغيراً، فتحه ونظر فيه وذكّره بأسماء أشخاص ما زالوا على قيد الحياة، وأضاف "قالوا إن شهادتك في المحكمة على أحد رجال المقاومة، كانت السبب في الحكم عليه بالسجن المؤبد وهدم بيته".

تغيرت ملامح العجوز، ارتعشت عضلات وجهه، وقف يتوكأ على عصاه وقال: لا أعرف شيئاً مما تقول، أنا رجل عجوز، وعليّ أن

أستريح.. قاطعه جلال محتداً: جلّ من قابلتهم قالوا إنك كنت تتعاون مع جنود الاحتلال، وإنك كنت تدعى "يونس" ثم غيرت اسمك إلى "ياسين"، لكن تغيير الاسم لا يكفي لتغيير الصفات.

أدار العجوز ظهره لجلال وقال: يا بني، ليست لي علاقة بأحد يحمل اسم "يونس"، كما أني لم أكن في القيادة حتى أصدر الأحكام.. والآن ماذا تريد؟.. ونظر إليه كما لو أنه يدعوه للانصراف، وأضاف "هذا ما أعرفه، أم أنك تعد كل ما قلته لك من قبيل الأكاذيب؟".

قال جلال وهو يهم بالانصراف: اسمع يا يونس أو ياسين أو يهوذا أو أبو جهل كما يحلو لك الاسم، لقد وشيت بذلك الرجل، واعترفت في المحكمة أمام الحضور والمتهمين إنك تعرف الرجل حق المعرفة.. لتعلم أن ذلك الرجل كان والدي، وكان عمري آنذاك خمس سنوات، لقد أخذوا والدي وحاكموه، وكنتَ شاهد الإثبات ضده.. هذا ما حدث حقاً، وما زلت تتظاهر بأنك لا تعرف شيئاً.. وأضاف وهو يتجه صوب الباب: "ناجي" اسم والدي ناجي الصوباني.. هل تذكر هذا الاسم؟.

- لم أسمع به البتة.

- أنت نفسك كنت شاهد إثبات الوقائع، وأنت من أرشدت الجنود إلى الكهف الذي كان يختبئ فيه رجال المقاومة.

- هذه إهانة لن أغفرها لك، فأنا لم أكن عميلاً أو خائناً.

تحسس جلال جانبه، لامست يده المسدس، ومع أنه أراد أن ينفذ خطته التي جاء من أجلها، إلا أن الجزء المنطقي من أفكاره دفعه للتفكير فيما ستؤول إليها النتائج، خاصة وإن طيف ولديه وزوجه ووالدته عبروا ذهنه تلك اللحظة، وهذا ما ثناه عن تنفيذ رغبته التي ألحت عليه وهو يهم بالخروج.. وحين خرج من الباب صفعه بشدة حتى شابه صوته صوت طلقة المسدس التي لم يطلقها، ومع أنه حدث نفسه أن هذا العميل يستحق الموت، إلا أنه شعر بتهور تصرفه إن أقدم على مثل هذا العمل أمام الخادمة التي كانت تصغي بانتباه للحوار، ولا بد أن تبلغ الشرطة.

***

في الأيام التالية، عرف جلال أن الخادمة تأوي إلى منزلها ليلاً، إلا أن ظروف عمله حالت دون وصوله إلى الواشي تلك الأيام، وفي الليلة التي قرر فيها تنفيذ مهمته، تناقلت المحطات الإخبارية أن دولة الاحتلال تحشد قواتها شمال وشرق قطاع غزة، بصدد اجتياح القطاع، فأسرع إلى التلفاز، وراح يتابع الأخبار.. مظاهرات عارمة تعم بعض أرجاء الأقطار العربية وتشجب العدوان، وسيل من البشر يتظاهرون في القاهرة، ينادون بطرد سفير دولة الاحتلال..

لا يدري جلال كيف استرخى تلك الليلة، وتمدد على الأريكة قبالة التلفاز، البث كان مشوشاً، وينقطع بين الحين والآخر.. تثاءب في غفلة من الزمن وسقط في أضغاث أحلامه.. ظهرت مذيعة التلفاز من وسط الشاشة تقول "في زمن قديم، كان الناس يمضون قبالة أجهزة التلفاز ساعات بكاملها، يشاهدون خلالها كل شيء دراكاً، كما كان يفعل ذلك كثير من أناسي القرن العشرين، استناداً إلى ما تقوله الكتب والمجلات القديمة.. أما اليوم فما عاد الناس يشاهدون التلفاز إلا لماماً، فما على المرء إلا أن يضغط على أرقام معينة في مفتاح التلفاز الرقمي، حتى يظهر له ما يريد مشاهدته، فهناك أرقام للأفلام بأنواعها، كما أن هناك أرقام للمسلسلات أو الموسيقى، أرقام لمعرفة الحظ وأرقام لأحداث المستقبل المنظور، أرقام كثيرة، تفوّق التلفاز الرقمي على الانترنت وعلى الكمبيوترات الحديثة، وصار بمقدور المرء أن يتنفس أجمل الروائح من خلال الضغط على رقم معين، فيعبق الجو المحيط بالتلفاز بالعطر الذي يحبذه المشاهد".

لم يصدق جلال ما يسمع، التقط الريموت وضغط على أرقام معينة، تغير لون الشاشة وانفتحت على أخبار المستقبل المنظور والمتوقع خلال أعوام قليلة قادمة، ظهرت مذيعة بصورة كرتونية وقالت "نحن بانتظار أنباء استثنائية خارقة للعادة"، لم يكن التلفاز يبث في تلك اللحظة شيئاً استثنائياً، كان يعرض فلماً وثائقياً عن مخيمات اللاجئين في لبنان، يمكن

مشاهدته، ويمكن أيضاً عدم مشاهدته، وما بين لحظة وأخرى ينقطع البث ليظهر "خبر عاجل" بخط أحمر عريض بعدة لغات يتوسط الشاشة، "تشتعل ثورة في تونس، ويهرب حاكم البلاد إلى خارج الحدود".. "مظاهرات صاخبة تعم شوارع البحرين".. "ثورة سلمية في اليمن يزداد لهيبها تنادي بالحرية والديمقراطية".. "مسيرات مليونية تعم أرجاء مصر، تحاصر رئيس البلاد وتُرغمه على التنازل عن الحكم".. "ثوار ليبيون يتحدون حاكمهم ويدخلون طرابلس دخول الفاتحين".. "الشعب السوري يتحدى الخوف وينطلق في شوارع دمشق وحلب والمدن السورية منادياً بتغيير النظام ومطالباً بالحرية".. "الشعوب العربية من المحيط إلى الخليج تتململ، تنطلق من عقال الخوف وتتحدى جلاديها بصدورها العارية، تخرق حاجز الصمت والخوف كما الطائرات تخرق حاجز الصوت".. فجأة ينقطع البث، ويظهر على شاشة التلفاز رئيس المذيعين، محاطاً بأجهزة الترجمة والنقل، المذيع يبدو مضطرباً ويقول "انتباه، انتباه، تسمعون الآن وتشاهدون نبأ فوق العادة، تعمل جميع أجهزة البث الأرضية واللاأرضية.. "مظاهرات تعم أرجاء فلسطين، المواطنون في غزة يتظاهرون، الضفة الغربية تشتعل وأبناؤها يهدمون جدار الفصل العنصري، عرب الداخل يثورون أيضاً، الجدار ينهار كما انهار جدار برلين، الحواجز تُقتلع، الفلسطينيون يحاصرون دولة الاحتلال ويدكونها بأسلحتهم

الصاروخية من الشمال والشرق والجنوب، ويتوقع سقوطها خلال سنوات قليلة قادمة"، وبصوت يرن رنيناً أكثر نقاء وصفاء وجلاء يتابع المذيع، "لتعود فلسطين إلى أهلها الشرعيين".

على رنين الهاتف هبّ جلال من غفوته، تراءت له الشعوب العربية تصحو من غفوتها في ربيع عربي، وكأن رياح التغيير قد هبّت عليها فعلاً.. في رأسه كان يتدفق سيل بشري، يجري برمته في اتجاه واحد نحو ساحة التحرير وسط القاهرة، مسيرات مليونية تراءت له لا تتسع لها الأرصفة، راحت تغمر جادة الشوارع، توقفت الاتصالات والمواصلات، الطائرات، القطارات والعربات، وشُلت الحركة، الجموع تهتف بسقوط الرئيس، وتنادي بعودة مصر إلى الواجهة العربية، إمارات السعادة تطفح من وجوه الجميع، كأن معجزة ما قد حدثت، مجموعات تحمل لافتات بألوان مختلفة، أعدت على عجل، تنادي بالحرية، تغني بصوت عالٍ، تصفر، تهدر، تضج، تعج على كل الأنماط.. يبتسم جلال لخاطرة تجتاح مخيلته، يتراءى له جلادو هذه الأمة يقبعون خلف الأقفاص الحديدية.. كان على شبه يقين بالانقلابات التي يمكن أن تحدث في أية لحظة، فالآفاق ليست سعيدة، وخيبات الشعوب وانتكاساتها تتخفى بين الجوع والقهر.. يرن الهاتف من جديد ويقطع استرسال أفكاره، رئيس عمله كان على الجانب الآخر من الخط، قال بأن الأمور تفاقمت في قطاع غزة، وبدأ جيش الاحتلال يمطره بالمدافع

الثقيلة والراجمات والصواريخ والطائرات، متذرعاً بالرد على القذائف التي تنطلق من القطاع تجاه حدوده الجنوبية.. وفي نهاية المكالمة طلب من جلال أن يقطع إجازته، ويتوجه إلى غزة لتغطية الأحداث المتسارعة في القطاع.

***

حرب وصمود

بعد منتصف الليلة التالية، وعن طريق معبر بيت حانون، وصل جلال مع مجموعة من الصحفيين والمراسلين إلى قطاع غزة، توجه مباشرة إلى الفندق الذي أعد للصحفيين في مدينة غزة.. الكهرباء مقطوعة والفندق يضم أكثر من سبعين صحافياً، يتراكضون على السلالم المعتمة، والنار تشتعل في ستائر إحدى غرف الفندق.. مرت الدقائق كالساعات هائلة مهولة، واسترسلت قوات الاحتلال في عدوانها على القطاع، ما انقطع القصف ليلاً، ولا هدأ نهاراً، انهارت العمارات، دكت الطائرات النفاثة المخيمات الفلسطينية فوق رؤوس قاطنيها، قتلت في ليلة واحدة أكثر من مائة وعشرين شخصاً، وجرحت أكثر من ثلاثمائة آخرين، عدا الحرائق التي نشبت ولا يعرف ضحاياها، لا ماء، لا كهرباء ولا سيارات إطفاء، عائلات بكاملها أبيدت، فرّت من هلاك الجوع والعطش لتلاقي الموت، والعالم يتفرج عبر المحطات الفضائية على القنابل الفسفورية التي تتساقط كالمطر، وتحرق كالصواعق.

مساء اليوم التالي اشتد القصف بصورة أعنف، اشتعلت غزة، وتوالت الغارات القاصفة في غير مهادنة، انطلقت مدافع وراجمات

قوات الاحتلال من كل اتجاه تقصف غزة، استمر القصف حتى السادسة صباحاً، سمع جلال أصوات هدير الطائرات، ليست طائرة واحدة ولا حتى سرباً واحداً، كأن السماء امتلأت بالطائرات وأمطرت قذائف، اهتزت أرض غزة وأبنيتها من الشمال حتى الجنوب، ومن الشرق حتى البحر، وخمن جلال أنها عملية تمشيط بالقنابل والصواريخ، تبدأ من الحدود الشرقية وتنتهي عند الشاطئ، وتعود من جديد.. وفي الدقائق القليلة التي تخلو فيها السماء من الطائرات، كانت البوارج والدبابات تصب حمم مدافعها عشوائياً على الناس حتى تعود الطائرات من جديد.. نوع من الطائرات المستعملة كان يزعق بصرير كئيب عند انقضاضها وصعودها ثانية، كأنها تجرح حديداً صدئاً، طائرات أخرى تخترق حاجز الصوت، أنواع من الصواريخ المستعملة تشق الهواء، ترتجف لها نوافذ البيوت، يُسمع لها صوت انطلاق وصوت انفجار، كثيرون من الناس اكتسبوا خبرة في التمييز بآذانهم، البعض كان يخرج إلى الشوارع أثناء غارات الطائرات، "هكذا نقل جلال الأحداث لمحطته الفضائية"، فالتحرك أثناء الغارة الجوية أسهل من التحرك أثناء القصف المدفعي.. للطائرات أهدافها، لا تحيد عنها في كل طلعة، وتحتاج كل طلعة إلى عشر دقائق على الأقل، وهناك فرص للانتقال خلالها من مكان إلى آخر، بعيداً عن المنطقة التي تُقصف.

اندفع البعض إلى الشوارع لاستنشاق الهواء، لم يكن هناك هواء، دخان الحرائق والقصف والغبار غطى سماء غزة، السيارات تتحرك بصعوبة وعصبية، والناس أيضاً.. وقدر أحد الصحافيين عدد القذائف المنطلقة من البر والبحر والجو تلك الليلة بثلاثة آلاف قذيفة.

حرب العراق لم تُمح من ذاكرة جلال بعد، وحصار بيروت ما زال يتربع في الذاكرة، احترقت بغداد عن بكرة أبيها وقوات التحالف الدولية تغزو العراق.. اشتعلت مخيمات بيروت وهُدمت على من فيها والقوات الإسرائيلية تجتاح لبنان.. الحرب تعود من جديد بطرق أشد وأقسى في غزة.. لا فرق بين القذائف.. حدث جلال نفسه وأسرع إلى نافذة غرفته في الفندق، فتحها على مصراعيها، تنفس بعمق هواء مشبعاً بروائح البارود التي تعم المكان، نوبة هذيان أصابته، وتبددت مع الرائحة الكريهة، شعر أنه لا يفهم شيئاً، انعقد لسانه وراح ينظر إلى القنابل الفسفورية كيف تنفجر في السماء، وتتساقط لهباً فوق الأجساد.

المراسلون الأجانب في الفندق مذهولون، بعضهم كان في يوغوسلافيا وقارن، بعضهم كان في بيروت وقارن، بعضهم كان في العراق وقارن، بعضهم خاض حروباً وقارن، أما جلال فقال لا مقارنة مع حرب غزة.. وفي ذاكرته راح يسترجع حمامات الدم التي كانت تغرق فيها شوارع بغداد ومدن العراق، خلال غزو قوات التحالف للعراق، وما نتج عن ذلك من قنص وقتل وسيارات مفخخة..

وأضاف "لا فرق بين القوات الأمريكية والقوات الإسرائيلية، وجهان لقاتل واحد"، وراح يسجل وينقل الأحداث في غزة لمحطته الفضائية كما يراها بأم عينيه..

قاد الجنود دباباتهم إلى مخيم رفح، أطلقوا أوامرهم بواسطة مكبرات الصوت بأن يتجمع جميع الذكور الفلسطينيين، الذين تزيد أعمارهم عن الثانية عشرة في طرف المخيم، مخيمات غزة تعتبر من أكثر مناطق العالم ازدحاماً بالسكان، استبدلت منذ سنوات عديدة سكناها بمبان من غرفة أو غرفتين بدل خيامها وبيوت الصفيح، تتناثر بينها الدكاكين والمشاغل والمدارس والعيادات التي تشرف عليها وكالة الغوث، مبان مكونة من طابق أو طابقين من الطوب الإسمنتي أقيمت بصورة عشوائية، بلا نظام معين للطرق، مجرد ممرات غير معبدة مثيرة للغبار في الصيف، وموحلة في الشتاء.

يقيم في مخيمات غزة أناس فقراء، تجمعوا ليكونوا معقلاً فلسطينياً، وفرت لهم وكالة الغوث المياه والكهرباء عن طريق أعمدة خشبية تصل إلى مدينة رفح.. ومع تساقط القذائف وشن الغارات لتدمير الأنفاق، التي حفرها اللاجئون تحت الأرض، لتصل سكان القطاع بالعالم الخارجي، عن طريق الحدود المصرية، حيث يتم نقل المرضى وتبادل السلع والبضائع، وما يحتاجه القطاع من مواد تموينية.. مع تدمير الأنفاق، تأكد للجميع أن قطاع غزة يواجه دماراً وكارثة لا مفر منها،

وإن قوات الاحتلال مصممة على تدمير القطاع وقتل المسلحين، حتى لو قتلوا عشرين مدنياً مقابل كل مقاتل فلسطيني واحد يحمل السلاح، ولن يكون هناك حوار معهم حتى لو اعترفوا بحق دولة الاحتلال في الوجود.

في شارع موحل، وسط بقايا البيوت التي قصفت بالقنابل، تجمع الذكور من شباب المخيم في صفوف طويلة، تحت حراسة مشددة من الجنود والآليات العسكرية، وعلى مقربة من الشارع وقف جلال مع ثلاثة من الصحفيين يتابعون ما ستؤول إليه الأمور.. ظهر شخص ملثم متسربل بالسواد من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، لا يظهر منه سوى عينيه فقط، أحس الواقفون بخطر داهم يعتريهم وهم يخمنون أن أحد سكان المخيم قد يكون هو المتخفي في هذه الملابس، بحيث يراهم ولا يستطيع أحد أن يتعرف عليه، طاف الملثم بينهم في سيارة عسكرية محاطاً بالجنود، وما أن يحرك رأسه إلى أسفل أمام أحد الرجال، حتى يقوم الجنود باعتقاله، اختار الملثم حوالي مائة شخص من بين عدة مئات من الفلسطينيين الذين تواجدوا في ذلك المكان.. اقتادهم الجنود إلى سيارات عسكرية نحو المجهول.. حبس جلال أنفاسه وهو يراقب الملثم، تسارعت دقات قلبه، اقترب من السيارة العسكرية، صر أسنانه وأمعن النظر في عينيه، ربما من أجل التحدي أو من أجل التعرف على صاحبهما، لم يظهر منه غير ظله الأصفر.. جال بخاطره الرجل الذي

وشى بوالده، محدثاً نفسه بأن هؤلاء العملاء يجب التخلص منهم قبل الخلاص من المحتل، فالعدو معروف لدى الشعب وظاهر للعيان، أما هؤلاء المخبرون الجواسيس فهم القتلة الحقيقيون، خائنو الوطن والشعب وأبناء جلدتهم، وفي قرارة نفسه تمنى لو كان بيده سلاحٌ ليطلق النار على ذلك المخبر، أخذ يتساءل "لماذا يتجسس البعض لصالح أعداء أمته، بينما لا يجد العرب جاسوساً يحمل جنسية المحتل بينهم إلا ما ندر!، وهل الأموال العربية عاجزة عن شراء جاسوس غريب واحد!"، ازدادت دهشة جلال مع تساؤله الأخير، وأخذ يتساءل من جديد ما إذا كان البيت العربي مصنوعاً من زجاج، مكشوفاً لكل من هب ودب، يسرح فيه العملاء بلا حسيب أو رقيب، وأضاف يحدث نفسه "اللهم اكفني شر أصدقائي، أما أعدائي فأنا كفيل بهم".

فجر اليوم التالي، بدأ الهجوم البري على غزة، اندفعت الدبابات بعد ساعتين من القصف المدمر، تراجع المقاتلون المدربون جيداً عند ظهور الدبابات، واختبأوا في الخنادق المحفورة مسبقاً، لكن أحد القادة الميدانيين لم يعجبه تراجعهم، وصاح فيهم "غزة كانت دائماً بوابة الغزاة لفلسطين، وكانت مقبرتهم.. منذ الفراعنة ومروراً بالرومان والصليبيين، كانت ثقباً أسود لمن يتجرأ على تدنيس أرضها.. كم شن اليهود حروباً عليها وانهزموا!.. هزمتهم غزة كما هزمت الكثير من الجيوش.. الغزي يزداد مناعة ويتكيف مع الواقع في ظل الموت الذي

بات مثل رياح الخماسين، وإذا كان هؤلاء القتلة حماة شجر الغرقد، فليعلم الجميع أننا الحطابون".. وفي الحال تناول مدفع الآربي جي واندفع أمام المقاتلين صائحاً بهم "انظروا كيف يتم تدمير دبابات الغزاة"، وضرب الدبابة الأولى والثانية، عندئذٍ تغيرت الأحوال فجأة، واندفع المقاتلون يضربون الدبابات المتقدمة، مما أجبر بقية الدبابات على التراجع ووقف تقدمها.

استبدل قادة جيش الاحتلال خططهم بعد أن اختبروا روحية المقاتل الفلسطيني، المصممة على الاستشهاد، استبدلوا التدمير بالاحتلال.. وبدلاً مما كانوا يحلمون به، من دخول مدن ومخيمات غزة واعتقال القادة الفلسطينيين، ونقل مقاتليهم إلى الداخل لعرضهم مكبلين في الطرقات.. حرّك آلته العسكرية المدمرة، وبدأ قصفاً مدفعياً لأحياء ومخيمات غزة واحداً بعد آخر عن بُعد، ثم حرّك طيرانه ليقوم بمئات الغارات الجوية على المدن، على امتداد الأربع وعشرين ساعة في اليوم.. بنايات كاملة انهارت على الأرض، حرائق، قصف عشوائي، وناس تفر من الموت إلى الموت.

***

عادت حرب لبنان وتربعت في ذاكرة جلال من جديد.. كان جلال أثناء حصار بيروت في عامه الجامعي الأخير، يعمل في إحدى الصحف التي تصدر من بيروت.. وحيداً وجد نفسه أثناء الحصار، والجميع يحملون

السلاح ويتصدون للقوات الغازية التي تحاصر بيروت.. يومها أدرك أن المقاتلين يخوضون حرباً ضد المحتل، حُرم آباؤهم خوضها في فلسطين عام النكبة، ولئن كانت رحى المعركة تدور في لبنان، إلا إنها الحرب الفلسطينية مع قوات الاحتلال عينها التي تأخرت أربعة وثلاثين عاماً.. فقد اعتاد أهالي بيروت سماع زخات الرصاص حول مدينتهم في أية لحظة، إلى حد أنهم باتوا يتجاهلون ذلك إذا لم يكن الأمر متعلقاً بشارعهم، أو البناية التي يسكنونها.. ففيما كانت الطائرات تنقض على المواقع الفلسطينية جنوب بيروت، كان الناس يجلسون في المقاهي على شاطئ البحر وفي شارع الحمراء، يحللون المأساة كما لو كانوا بعيدين جداً عنها.

تلك الأيام، حاول الغزاة بعد أن عجزوا من القضاء على المقاتلين في بيروت الغربية، التي تكتظ بالمسلحين واللاجئين الفلسطينيين، حاولوا حمْلهم على الرحيل من لبنان، أذاعوا البيانات وأغرقوا المدينة بالمناشير لتلك الغاية، ومع ذلك لم يتوقف قصف الطائرات للمنطقة الجنوبية من بيروت.. وخلال إحدى الغارات شاهد جلال مجموعة من المتطوعين تتحلق حول سيارة مرسيدس طمر نصفها تحت الأنقاض، ونتأت منها قدمان، وعلى مقربة منها كان آخرون ينتزعون الضحايا من سيارات مسحوقة.. وبعد رفع الحجارة الضخمة التي غطت السيارة، راح المتطوعون يهتفون "الله أكبر" ويسحبون جثة رجل يرتدي بنطالاً أزرق اللون وقميصاً صيفياً، وقد تحطم رأسه داخلها.

جرت مفاوضات تلك الأيام، وتوقف القتال بعد أكثر من ثمانين يوماً على بدء الحصار والجوع ودمار بيروت، وخرج المقاتلون نتيجة المفاوضات، يرفعون أعلام النصر والصمود على سفن الشتات إلى بلاد الله الواسعة، ولم يبق في المخيمات غير النساء والأطفال والشيوخ، ومن لم يحمل سلاحاً.

وخلال فراغ مخيم صبرا وشاتيلا من المقاتلين، انقض القتلة في ليلة حالكة الظلام على المخيم، عاثوا فيه فساداً، قتلوا من فيه، وتركوه أثراً بعد عين.

مر يومان والمخيم مطوّق، حاصروه من جهاته الأربع، وأطلقوا كلابهم لتنهش لحوم البشر وهم أحياء.. كان الجو حاراً، وراحت رائحة الموت تفوح منذ صباح اليوم الثالث من المخيم.. تداعى الأهالي وهبوا بعد صلاة الفجر لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، وأسرع جلال عائداً إلى بيته الذي يقيم فيه مع ثلاثة من زملائه، جنوب مخيم شاتيلا.

أشرقت الشمس على غير عادتها صباح ذلك اليوم كئيبة حزينة، وبدا في الأفق بوادر مذبحة لم يسجل مثلها في التاريخ.. وعلى الأرض بدت أسراب ذباب أزرق تهاجم أكوام الجثث في كل مكان، في الطرقات، في الشوارع، في الأزقة، تحت العربات، فوق أكوام الأنقاض والقمامة، في مداخل البيوت وداخل غرف النوم.

عند المدخل الجنوبي لمخيم شاتيلا، شاهد جلال صفاً من البيوت الصغيرة، انهارت فوق أصحابها، وعلى مسافة خمسين متراً كومة من الجثث، تشابكت أرجلها وأيديها، قُتلوا جميعاً برصاصات في الرأس، أحدهم قطعت خصيتاه، وآخرون جُزت أعناقهم.. عيونهم مفتوحة ومتشنجة، لم يقو الموت على إزالة ما فيها من رعب، خاصة أعين الأطفال.

على مسافة قريبة، جثث لخمس نساء، وعدد من الأطفال تناثروا فوق كومة تراب، وجثة امرأة مستلقية على ظهرها وقد شق الثوب عن صدرها وقطعت حلمتاها، وإلى جانبها رأس دون جسد لطفلة بدت وكأنها تنظر إلى القتلة بغضب، وطفلة أخرى لا يزيد عمرها عن الثالثة ترتدي ثوباً أبيضَ ملطخاً بالدم والطين، ورأسها مهشم برصاصة.

أمام بوابة منزل تهدّم نصفه، امرأة شابة سقطت على وجهها وهي تحتضن رضيعها، يبدو أن القتلة أطلقوا النار عليها في ظهرها، فسقطت على وجهها وهي تشد الرضيع إلى صدرها وتتشبث به.. وبجوار جدار، اصطفت عشرون جثة مربوطة الأيدي، لفتية في سن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة، لن يروا مدرستهم ولن يراهم مدرسوهم وزملاؤهم بعد تلك اللحظة.

في حفرة قرب مستشفى عكا، وقفت امرأة تحمل بطاقة هوية ملطخة بالدماء، تنظر إلى جثة مهشمة الرأس وتصرخ قائلة "هذا أخي،

إنه لبناني وليس فلسطيني".. وعلى مقربة منها طفلتان في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمرهما، مستلقيتان على ظهريهما متباعدتا الساقين، قام القتلة باغتصابهما قبل أن يطلقوا الرصاص على رأسيهما.. وفي غرفة مظلمة قريبة، شاهد جلال خمس جثث تلتصق ببعضها البعض لرجل وامرأة وصبيين وطفل رضيع يتحرك بين ذراعي أمه المقتولة، قُتلوا جميعهم وهم نائمون فوق فراش على الأرض.

تتناثر محافظ النقود حول أكوام الجثث، تؤكد أن القتلة كانوا ينهبون ضحاياهم، كما تتناثر الأعيرة النارية وعلب الذخيرة الفارغة والأوراق الملونة التي تغلف ألواح الشيكولاته، وكلها تؤكد من خلال الكتابات أنها من صناعة دولة الاحتلال.

ساعات طويلة مرت من عمر الزمن، وقف جلال مشلول الحركة تائهاً بين الجثث قبل أن يصل غرفته، لا يدري إلى أين يتجه، أيقظت المشاهد آلاف الأسئلة في أعماقه، "لماذا هذه الهجمة المدمرة على الفلسطينيين؟ ولماذا هذه المذبحة؟.. ألم يكتفوا بإخراج المقاتلين من لبنان!.. يبدو أن الهدف ليس تشريدهم، بل إبادتهم".. ومع أنه لم يشأ أن يغوص في آفاق السياسة اللعينة، إلا أنه شعر وكأن بركة الدماء يرتفع منسوبها إلى حد الاختناق والغثيان.. مرت الأحداث في ذاكرته كوميض برق، انتابته موجة من الهذيان.. أيقظه من إغراقه الفكري صراخ امرأة تشده بقوة من قميصه وتقول "اهرب، إنهم يذبحون

الجميع، لماذا تقف كالأبله؟".. حاول أن يستوضح الأمر، لكنها اختفت عن ناظريه بين الجموع الهاربة.

بدأ يركض، سمع صوتاً يقول "قف وإلا قتلناك"، حاول الالتفات، سمع أصوات طلقات نارية، ظل يركض ويركض، بدأ يشعر بثقل في ساقه اليسرى، وأن سائلاً ساخناً ينساب منها، لحق بالنساء والأطفال والشيوخ الهاربين، بدؤوا ينظرون إليه ويتهامسون، اقترب منه أحد الرجال وقال "أنت مصاب، إنك تنزف، ويجب أن تذهب إلى المستشفى".

مساء اليوم التالي، قال له أحد معارفه أثناء زيارته لقريب له في المستشفى "وجدنا صاحب البيت الذي كنت تقيم فيه مقطوع الرأس ومبقور البطن، أما زوجته فكانت مربوطة ومذبوحة، وسكاكين القتلة عملت في أجساد أطفالها، لقد تمكنا من دفنهم في حفرة واحدة، وبعد أن تشفى يمكنك زيارة قبرهم".

عند الفجر، سمع جلال أصوات طلقات نارية من جديد، ولا يعرف كيف حملته ساقاه على الهرب من المستشفى، شاهد رجال الإسعاف ينتشلون الجثث، ولم يكن سهلاً التعرف على أي من الضحايا، وهو يهرب ليختبئ في ملجأ قريب.

رغم ضيق الملجأ، إلا أنه كان يختبئ فيه أكثر من سبعين شخصاً، وفي باب الملجأ وقفت فتاة لم تبلغ من العمر تسعة عشر عاماً تقول لوالدها "سأخرج لأحضر بطاقات الهوية، أنا فتاة لبنانية ولن يعترضوني".. ورغم أنه حاول منعها، إلا أنها خرجت، بعد لحظات سمع من في الملجأ طلقات رصاص وصرخة تبعها صمت، اندفع والدها العجوز يستطلع الأمر، ولاقى مصير ابنته.. حبسوا أنفاسهم، ولم يقو إنسان منهم على التحرك داخل الملجأ، لكن المسلحين اكتشفوا أمرهم، أصروا على خروجهم، فرزوا الرجال والأولاد عن النساء، ثم أخذوا ثلاث فتيات وربطوهن بالحبال، واغتصبوهن على مرأى من الجميع.

وقف الرجال بمحاذاة الحائط، أخذ الجنود يضربون بعضهم بالعصي، ويطلقون النار على بعضهم الآخر، والرجال يسقطون الواحد تلو الآخر.. أخذوا جلال مع من تبقى على قيد الحياة من الرجال إلى محطة بنزين قريبة، تركوهم دقائق عدة، ثم عادوا وبدؤوا يطلقون النار عليهم، وقع الجميع على الأرض، وسمع جلال أحد الجنود يقول: على الذين أصيبوا أن ينهضوا لننقلهم إلى المستشفى.. لم ينهض جلال رغم إصابته، كان بين الموت والحياة، ولم يكن يملك أية قوة تسمح له بالوقوف، وحين نهض بعضهم، أطلقوا النار للإجهاز عليهم، وصوبوا نحوهم ضوء كشافاتهم للتحقق من أنهم ماتوا جميعاً.. وضع جلال

رأسه على الأرض وحبس أنفاسه إلى أن رحلوا، وقضى الليل مع أسوأ الأحاسيس وأكثرها سواداً بجوار من مات أو كان يحتضر.

في الصباح عادوا لكي يضعوا عليهم أغطية، لاحظ أحد القتلة أن أحد المصابين يرتعش، فأطلق عليه رصاصتين، أصابته الثانية في صدغه الأيمن الذي كان يضع يده عليه، ثم تناول أغطية فرد أحدها عليه، وفرد الغطاء الثاني فوق جلال، فلم يعد يرى شيئاً، لكنه سمعهم ينادون سكان المخيم طالبين منهم الخروج، والتجمع في المدينة الرياضية.

بعد ذلك رحلوا، ولم يعد جلال يسمع شيئاً، اغتنم الفرصة لكي ينهض، تحامل على جسده وسار في شارع قريب ضيق، دخل أول بيت قابله، كان هناك جثث لثلاثة شبان يبدو أنهم من العمال، كانت رؤوسهم منكسرة كرايات مهزومة، اخترق الرصاص أجسادهم وهم يتناولون الطعام، وبقيت الأطباق نصف ممتلئة.. شعر بدوار في رأسه، تهالك وجلس في زاوية معتمة، بدا عاجزاً عن النطق، ينظر فلا يرى غير ظلال صفراء تملأ المكان، قام ووقف، جال بعينيه يبحث عن نقطة ماء، صنبور الماء كان جافاً، مسح وجهه بأطراف قميصه، نظر في المرآة المحطمة فوق المغسلة، شاهد لون وجهه شاحباً باصفرار حبة ليمون، شعر أنه يستعيد وعيه، تمنى لو يستطيع الوصول إلى بيته ليستبدل ملابسه الملطخة بالدماء.. وخرج يعرج لا يدري إلى أين يتجه، وجد

نفسه أمام مسجد قرب سوق الخضار، ووجد شباناً من المخيم تعاونوا على حمله، ونقلوه إلى مستشفى غزة.

في مستشفى المقاصد وسط بيروت الغربية، وجد جلال نفسه مساء اليوم التالي، عرف أن الصليب الأحمر قام بنقله من مستشفى غزة إلى هناك.. وفي السرير المجاور، سمع أحدهم يقول أنه كان يبحث عن أفراد أسرته بين الأنقاض، لكنه لم يجد أثراً لأحد منهم، وحين عاد إلى بيته المهدم، وجد إحدى بناته مربوطة اليدين والقدمين، مذبوحة، وإلى جانبها طفلها الرضيع مطعوناً بالسكاكين وهو يشد صدر أمه.

ويوم أن خرج جلال معافى من المستشفى، قرر أن يكرس عمله لأبناء جلدته، وما يعانون من قسوة الظلم الواقع عليهم، كما صمم أن يسجل الأحداث وينقل صور المذابح التي يقترفها جنود الاحتلال بحق الفلسطينيين إلى العالم.. وفي ظهيرة اليوم التالي رافق فريقاً يحمل الجنسية الدنماركية كان موجوداً أمام مدخل شاتيلا، وشاهد عدداً من المسلحين يمنعون سيارة شحن ممتلئة بالنساء والأطفال من الخروج من المخيم، كان الأطفال يصرخون، والنساء يبكين ويتوسلن وأيديهن على وجوههن، بينما وقفت آليات عسكرية ودبابات وناقلات جند قريبة من المسلحين.

خلال ذلك اليوم، استطاع جلال أن يلتقط صوراً لرجل عجوز تجاوز الثمانين عاماً، يلبس طاقية صوفية بيضاء، يتوكأ على عصاً، وهو يرتد إلى المخيم مبتعداً عن المسلحين الذين أقاموا الحواجز، ووقفوا قرب عرباتهم المصفحة مترصدين، وسلاحهم مصوب نحو المشاة.. وأثناء عودته من المخيم مساء، شاهد مع الفريق الذي كان يرافقه جثة الرجل العجوز وقد اخترقت رصاصة صدغه الأيسر، وبجواره عكازه، وعلى بعد خطوات منه تكوم جسد عجوز آخر تجاوز السبعين عاماً، مقتولاً برصاصة في رأسه.

صباح اليوم التالي حاصر القتلة مستشفى غزة القريب من مخيم شاتيلا، وعبر مكبرات الصوت، أمر المسلحون الجميع أن يخرجوا من مخابئهم ومن المستشفى، أكدوا لهم أن ليس هناك مبررٌ للخوف.. اقتاد المسلحون أسراهم تحت تهديد السلاح إلى الشارع الرئيس في مخيم شاتيلا، وهناك تم توزيعهم إلى ثلاث مجموعات.. المجموعة الأولى كانت من الأطباء والممرضات الأجانب، طلب منهم المسلحون خلع أرديتهم البيضاء، اقتادوهم إلى مبنى من مباني الأمم المتحدة خارج المخيم، لاستجوابهم ومراجعة أوراقهم الرسمية، والتأكد من جنسياتهم، ولم يسمحوا لهم بالرجوع إلى المستشفى.

المجموعة الثانية كانت من المواطنين اللبنانيين، اقتادوهم حيث تم التحقيق معهم، وكان المحققون يشطبون وجوه الأسرى بالسكاكين

كلما أجابوا بإجابات لا تعجبهم، وقد أفرج عن بعضهم، في حين تم نقل الباقين إلى معسكرات الاعتقال في الجنوب.

المجموعة الثالثة كانت من الفلسطينيين، اقتادهم المسلحون إلى مكان ما خارج المخيم، ولم يعرف أحد مصيرهم، وخمن جلال ومن معه من المراسلين الصحفيين أنهم قُتلوا ودُفنوا في مقابر جماعية خارج المخيم.

ومع أن رياح الموت والجوع والعطش انتشرت تلك الأيام في كل أرجاء المخيم، إلا أن سكان المخيم ظلوا صامدين يرددون "نحن فلسطينيون، ونريد العودة إلى بلادنا".

***

صبرا وشاتيلا وغزة سيان، لا فرق بين مذبحة وأخرى، مذبحة دير ياسين أو قبية أو خان يونس أو كفر قاسم أو شاتيلا أو مذبحة غزة.. لا فرق بين المذابح.. "حدث جلال نفسه"، وتذكر ما رواه جده عن مذبحة دير ياسين عام النكبة، قال إن عصابات الاحتلال عمدت إلى إبادة وذبح سكان القرية العربية الواقعة غرب القدس وهم نائمون، قتلوا العديد من الرجال والنساء والأطفال والشيوخ بدم بارد، بقروا بطون الحوامل، ولم يرحموا أحداً، بحواس ميتة قطعوا أوصالهم، وألقوا

بجثث عديدة منهم في بئر القرية، بينما كوموا الجثث الباقية في كومة رهيبة بجوار البئر، وما تبقى من الناجين أغرقوه في الإذلال، وساقوه في الشوارع مهاناً، ثم فتحوا له باب الخروج إلى مناطق عربية، وهو قطعة منهارة من إنسان تجمعت كل عوامل القهر عليه.. فزع سكان القرى المجاورة بعد سماعهم بالمذبحة، وتخوفوا من مذابح جديدة، بعضهم جمع أفراد أسرته، وهجر قريته ليحتمي في مكان آمن، أما الآخرون فصمدوا في قراهم ومكان سكناهم، تمسكوا بأرضهم، ولم يخرجوا من بيوتهم، وقالوا "إننا صامدون".

***

توقف القتال في غزة، وعاد جلال إلى واقعه، وقبل أن يعود إلى الضفة الغربية، نقل ما شاهده بأم عينيه بالصوت والصورة الحية إلى العالم، من خلال عمله في الصحافة، ومراسلاً لإحدى المحطات الفضائية.. وأضاف لصحيفته في مقال خاص عن حرب غزة، بأن جنود الاحتلال اتبعوا سياسة الأرض المحروقة، لم يتركوا مبنى واحداً ولا حتى حجراً قائماً مكانه، بل الإزالة الكاملة، تحولت المخيمات إلى طرق ممهدة لقواتهم.. استمر الهجوم في الأيام التالية من الجو والبر والبحر بنفس الأسلوب التدميري في اليوم الأول، تجمعت الآليات الثقيلة قرب الشاطئ، وبدأت بإزالة المباني وإقامة السواتر الترابية.

هبّ الناس من كل مكان فارين من شدة القصف، خوفاً على حياتهم أو طمرهم أحياء داخل بيوتهم، "أضاف جلال إلى صحيفته"، تدفق اللاجئون بالآلاف، لجأوا إلى مدارس الوكالة والمباني الحكومية المهجورة، لكن الأعداد كانت أكبر من قدرة استيعابهم، لم يبال المعتدون لقيم وأخلاق الحرب، قصفوا المدارس، قطعوا الماء والكهرباء عن القطاع، وكشفوا القناع عن ممارساتهم العدوانية بحق شعب فلسطين.

استغرقت عملية العدوان على قطاع غزة أكثر من ثلاثة أسابيع، كلفت المدنيين خسائر بشرية، وصلت إلى أكثر من ألف وأربعمائة شهيد، وخمسة آلاف جريح، وتشريد ما يزيد عن ثلاثمائة ألف مواطن.. بينما قالت قوات الاحتلال إن العملية كانت ناجحة، وطلبوا من الفلسطينيين الذهاب إلى الصحراء العربية الواسعة.. متناسين "أن الحكومات زائلة تأتي وتروح، تماماً مثل القوة والاستعمار.. أما الشعوب فباقية في أرض الآباء والأجداد، كالتراب الذي خلقت منه وإليه تعود".

ورغم انتشار رياح الموت والجوع والعطش في كل شوارع وأزقة قطاع غزة.. "أضاف جلال"، إلا أن أهل القطاع ظلوا صامدين، يرددون "نحن فلسطينيون منذ آلاف السنين، لا نعرف لنا وطناً غير هذا، هنا نبتنا ونبت أجدادنا الأوائل، على هذه الأرض ولدنا، فيها نصمد وعليها نموت، ولن نغادر أرضنا".

***

المواجهة

كجنين في رحم أمه، كوّر جلال نفسه في الفراش، دفن رأسه بين الوسائد، ووضع راحتيه بين ساقيه، باحثاً عن استراحة من لمحات أفكاره المؤلمة، عاد ومد ساقيه فتعرتا خارج الغطاء، حرر إحدى ذراعيه وثناها تحت رأسه، كاميرا دارت في رأسه بحركة بطيئة واسترجعت الأحداث، عادت صور الحرب في قطاع غزة وملأت رأسه، بدأ يرتعش وكابوس ثقيل يربض فوق جسده.. مضت ساعات عدة والأفكار تتصادم في رأسه، يغمض عينيه فيرى زوبعة من الصور تدور وتدور، يفتحهما فتظهر ذكرياته على شاشة السقف الأبيض، تعرّق وأخذ يهذي بما شاهده من ويلات أثناء الحرب.. تناولت والدته مصحفاً وجلست قرب رأسه تقرأ ما تيسر لها من القرآن، بينما انزوت زوجته ياسمين في المطبخ تهدهد رضيعها.

بعد أكثر من ساعة، انسحبت والدته من غرفته، بينما أسرعت زوجته إليه، كان جلال نائماً، أضاءت المصباح ووقفت تراقب ذلك الرجل الذي غزا حبه قلبها، وأنجبت منه طفليها، بدا لها غريباً في فراشه، حلمت به مرات لا حصر لها أثناء غيابه في غزة، يظهر أن الحرب نحتته بطرقها، فقد عاد أكثر نحولاً، وبدت شرايينه بارزة كالأوتار تحت

الجلد، الشرايين في إحدى ساقيه معلّمة وزرقاء من آثار الحادث الذي تعرض له في بيروت، ومع أنه نائم إلا إنه مشدود، هذا ما جال بخاطرها وحدثت به نفسها، وهي تنحني وتقبّله من جبينه بحزن، فقد تصورت لقاء مختلفاً بعد عودته، وليس هذا النوع من الشيخوخة المبكرة، لم يمارس معها الحب كما كانت تتوقع، بدا لها أنه لم يكن بكامله في فراشه تلك الليلة، روحه كانت غائبة، لم يعانقها، تساءلت عن مزاجه الحسن وكلماته الحلوة، لعنت الحرب وقوات الاحتلال والشتات والظلم، لم يهمس باسمها ولم ينظر إلى عينيها، وأسرع إلى فراشه، أبعدت طفليها عنه وتركته يعيش كوابيسه دقائق، انتظرته حتى يصحو، ولم تفقد الأمل في أن تجد فجوة تدخل منها إلى روحه، انحنت تقبله مرة أخرى فاستيقظ مذعوراً، في وضعية الدفاع عن النفس، لكن ما أن شاهدها حتى ابتسم، أرخى أعصابه وأخذها من كتفيها وجذبها إليه.. شعر أنه يعيش أسير تردد قوى متعارضة تشطره إلى نصفين متضاربين، قبلها من وجنتها واسترخى على السرير ينظر إلى السقف، داهمته ذكريات وقنابل وحرب يشيخ لها الأطفال، كان يحاول بكل جهده أن ينساها، يتصور أنه سيستيقظ ذات يوم وقد تخلص للأبد من الألم الأصم الذي يعصر ذاكرته، في الحرب كانت الأمور تجري لصالح المحتل أكثر مما كانت تسير لصالح رجال المقاومة، لم يكن هناك قرار أخلاقي، لم يستطع جنود الاحتلال مواجهة رجال المقاومة وجهاً لوجه،

على الأرض كانوا يتيهون مثل بالونات فارغة، فراحوا يصبون نار حقدهم من الجو والبحر على المدنيين.. شعر بأنفاس ياسمين تلامس وجهه، قطعت رائحة عطرها استرسال أفكاره، استنشق رائحة عروس في سريره، أسلم نفسه لنداءات الرغبة من جديد.. عناق فاتر، وأفكار متشابكة.. شعر بالرغبة في استرجاع الماضي، والكلام عن الأحلام المكسورة، أكد لنفسه أنه لم يتغير جسدياً فقط، بل روحياً أيضاً، لكنه افترض أن الزمن كفيل بمحو الذكريات السيئة والعودة ليصير ما كان من قبل.. العودة من الحرب سالماً توازي الخروج من السجن بعد حكم طويل.. تشتتت أفكار ياسمين أيضاً، وانسلت من بين ذراعيه محزونة، ارتدت ثوباً فضفاضاً، ودلفت المطبخ لتصنع فنجاني قهوة.

تحت نور المصباح الضارب للحمرة، جلسا يرتشفان القهوة التي يتصاعد بخارها، نظر واحدهما إلى الآخر، شعرا بعدم الراحة، تبادلا لحظات صمت، لكن أحداً منهما لم يتطرق إلى موضوع النوم والفراش، أرضيا إلحاح الرغبة بالعناق الفاتر، لكن لم يحدث لقاء حقيقي، ولم ينصهرا في روح واحدة، كما كانت ياسمين تتصور.

اقترب الفجر، تثاءبت ياسمين وألقت بنفسها على السرير، استلقى جلال جانبها وأخذ يختلس النظرات إليها، شعر بعجزه أمامها والكاميرا تدور في رأسه من جديد، مناظر الحرب أقلقت راحته وسلبت من عينيه النوم، طافت أغنية فيروز بذاكرته، *"كيف ينام وشراع*

الخير حطام، كيف ينام ودروب الحق ظلام" .. قام، أطفأ المصباح وعاد لسريره، أغمض عينيه، بدت أسئلة عقيمة بلا أجوبة تدور في رأسه.. لماذا كتب الله على الشعب الفلسطيني كل هذا الشقاء؟ ولماذا شُرد من وطنه!؟ لماذا لا تقام له دولة على أرضه مثل بقية شعوب الأرض!؟.. والأطفال ما ذنبهم! ألا يحق لهم أن ينعموا بحياتهم، ويلعبوا ألعابهم البريئة بدل أن يحملوا قطعاً خشبية على شكل أسلحة، ويتفننون في إطلاق النار على المحتل؟.. هذا ما كان يجول بخاطره ويتساءل وهو يرقد في الفراش، نصف نائم، نصف مستيقظ، وشيئاً فشيئاً سقط في العدم، ونام طافياً تحت أفكاره المضطرمة، مثل قطعة خشبية طافية، يتلاعب بها الهواء وسط بركة ماء ضحلة.

كشريط سينمائي تسارعت الأحداث في رأس جلال، هب من فراشه وغادر منزله، كأنما هو ذاهب على رأس جيش لملاقاة أعدائه، كان عليه أن ينجز مهمته وينتقم لأبيه من الواشي، عرج على مقهى قريب قبالة بيت هدفه المنشود، وجلس يرقب الصاعدين والنازلين من البيت.. شاهد الخادمة تخرج من البيت، قام مسرعاً وولج البيت، مشى على رؤوس أصابعه وتسلل إلى حجرة النوم، كان الواشي نائماً، ولم يشعر جلال بأية شفقة نحوه على رغم كبر سنه، وكونه وحيداً تلك اللحظة.

كان المسدس في يده، لكنه أدرك أن في إمكانه خنق الواشي بوسادة، بحيث يظن الجميع أنه قضى خلال نومه، ولن يشك أحد في أمره.. إلا

أن جلال وقف دقائق يحدق في العجوز الذي كان السبب في عذاب والده وتشريد أسرته، فجأة تناول المخدة ووضعها على وجه الرجل، ودون أن يرمش له جفن أطلق النار، ولم ينتظر حتى يتأكد من موت غريمه، تناول منديلاً ورقياً ومسح بصمات يديه عن المسدس، وألقاه على السرير قرب الجثة، أدار ظهره، ثم أغلق الباب وغادر بهدوء.

منذ الصباح انتشر الخبر كما تنتشر النار في الهشيم، فما إنْ عادت الخادمة إلى البيت وشاهدت سيدها غارقاً في دمائه حتى صرخت واتصلت بالشرطة.. أقام الجنود الحواجز، وانتشرت فرق مسلحة من حرس الحدود في جميع أنحاء القدس، يوقفون المارة ويدققون في بطاقاتهم الشخصية، يحققون ويفتشون البيوت المجاورة لبيت القتيل.. قلبوا كل الأنحاء، غرف النوم، المكاتب الخاصة، الحجرات، الحمامات، الخزائن، الأسرّة، اعتلوا الأسطح، نقبوا في البراميل وخزانات المياه.. وكان إذا تأخر أحد في فتح باب بيته، كسروه بكعوب بنادقهم، وكانت ثمة كلاب ترافقهم، تنبح بغضب إلى جوار أصحابها شاحبي اللون، وثمة أصوات أطفال ونساء داخل البيوت تصرخ، ويصدر صراخها كأنما هو صوت عواء ذئاب جائعة.

قالت الخادمة للجنود إنها تعرفت على شخص زار سيدها أكثر من مرة، واستجوبه بشأن وشاية على أبيه الذي مات في سجنه.. وأعطتهم أوصافاً له.. وخلال ساعة زمن طوّق الجنود بيت جلال في مخيم قلنديا،

لم تكن جليلة وحفيدها ناجي في البيت.. صرخت ياسمين وهم يقتحمون بيتها وابنها الرضيع يلتقم حلمة ثديها.. انتزعوه من بين ذراعيها بقوة، سألها أحدهم: أين جلال؟.. قالت إنه خرج من البيت منذ مساء البارحة ولم يعد.. جروها من شعرها إلى سيارة عسكرية وهي تتشبث بوليدها، وقبل أن يودعوها زنزانة كالقبر للتحقيق معها حتى يستسلم جلال، أو تعترف عن مكان وجوده، قام أحدهم بتفتيشها من رأسها حتى قدميها، أظافرها، ما تحت إبطيها، كل شيء..

منذ لحظة اعتقالها، أحست ياسمين بالخوف، كما شعرت بالتعب من الوقوف في الزنزانة، ولم يكن هناك متسع للمشي ولو لخطوتين، جلست دقيقتين، ونهضت واقفة حين أحست ببرودة الأرض تلسع عظام ساقيها، ظلت واقفة بعض الوقت، جلست مرة ثانية، وقفت، جلست ووقفت.. وكانت تسمع بين الحين والآخر صراخاً لسجينات أخريات في أقبية وزنازين قريبة منها، أناشيد برنات حماسية، توحي بظلمهن، تقطعه فجأة صرخات يأس وسباب وشتائم.. وكان وقع الأصوات يعبر عن واقع الحال المؤلم لهن، وهو ما جعل ياسمين ترتعد من الخوف الغامض المرعب، الذي شعرت به حين تسرب إلى سماعها ذلك الصوت الذي يشبه الاسطوانة المشروخة، والذي يخفي أكثر الأسرار جرماً، اغتصاب السجينات وإجبارهن على خلع ملابسهن أمام الجنود، وأحست أنهم لو

سلخوها حية لما شعرت بعذاب أكثر مما كانت تشعر به تلك اللحظة في زنزانتها.

هربت من أفكارها اللعينة وأخذت تفكر بطفليها، بابنها الرضيع، فكرت فيه كما لو كانت لا تزال تحمله بين أحشائها، شعرت أنه ما زال في بطنها ولم يخرج إلى نور الحياة بعد، حدثت نفسها إن أول شيء ستفعله ما أن تخرج من سجنها أن تحتضنه وتلقمه ثديها.. فقد رتبت كل شيء مع زوجها جلال قبل عدة أيام ليحتفلا بمرور عامين على ولادته، فكرت في القرفة الساخنة وعصير البرتقال البارد والحلويات، والصديقات اللاتي سيحضرن الحفلة، حتى ملابس الصغير الزرقاء اللون.. تراءى لها عيون الأطفال بابتساماتهم العذبة وهي تغني "هابي بيرث دي تو يو" والفرح يملأ وجوههم.. ثم عادت لحاضرها، تراءى لها ناجي الصغير يبكي ويبحث عنها.. بكت بألم، حاولت طرد تلك الأفكار من رأسها، أخذت تفكر ثانية بطفلها الرضيع، في استغراق جعلها لا تلاحظ أنها تحدق دون أن تشعر إلى مجموعة من الرسوم الإباحية المحفورة على جدار الزنزانة، عبارات إباحية، تواريخ، سهام، عناق وشفاه.. اضطربت من جديد، أغلقت عينيها وأخرسها الفزع، نظرت إلى الأرض، ثمة مجموعة من النمل تجر صرصاراً ميتاً.. شعرت أنها تهوي من على منحدر شاهق، تنفتح حولها مهاوٍ بدلاً من النوافذ، والجنود يستعرضون عضلاتهم كما تستعرض الذئاب أنيابها في الليل.

شعرت أنها مقطوعة عن الحياة، تعيش عالماً من الكوابيس، أحست بالظلمة تخنقها، اختفت الجدران، تلاشى السقف، احتجبت الأرضية عن بصرها، أحست إحساساً عميقاً أنها تعيش عالم الأموات.. انزلقت إلى الأرض الباردة، باسطة ذراعيها اللتين بدتا لها طويلتين جداً، وجلست تتلو آيات من القرآن، وتدعو ربها أن ينقذها من العذاب الذي تعيشه تلك الليلة.

فجأة اعتدلت في جلستها ووقفت، حدثت نفسها "من سيرضع ابنها أو يُحضر له وجبته؟"، وراحت تدق بيديها وقدميها على الجدار، يئست من الدق وتورمت يداها.. استسلمت لقدرها وجلست تبكي دموعاً ساخنة، جفلت ووقفت وأحدهم يفتح القفل ويشرع باب الزنزانة.. دخل رجل بلباس مدنية زنزانتها، دفعها عبر ممر ضيق مكشوف إلى حجرة مظلمة، وبجوارها حجرة أخرى مضاءة بالأنوار.

في الحجرة المضاءة كان أحد الضباط يتحدث بلغة غريبة مع رجل آخر بصوت خفيض، قطع كلامه وثبّت عينيه عليها فترة طويلة، ثم سألها بلغة عربية ثقيلة بعض الأسئلة العامة: اسمها، عمرها، حالتها الاجتماعية، عملها، عنوانها.. وأجابت ياسمين بصوت ثابت، ثم أضافت سؤالاً من عندها حين فرغ الكاتب من كتابة آخر إجاباتها، وهو سؤال لم يرد عليه الضابط لأنه في نفس اللحظة دق جرس هاتفه النقال، وانشغل الضابط بالكلام مع المتحدث، وبعد أن أغلق الخط، أجاب في

رنة عادية من السخرية القاسية "لا تقلقي، أنا هنا لأجيب على الأسئلة التي يسألها أمثالك، ممن لا يعرفون أسباب القبض عليهم".. ثم أردف قائلاً بصوت مختلف "ولكنك لم تخبريني بعد أين ذهب زوجك جلال، وما علاقته بياسين؟".

أجابت إنها لا تعرف أين ذهب، ولم تسمع باسم ياسين من قبل.

سألها ثانية إذا كان لزوجها أعداء؟ فقالت لا أعداء له إلا من سلبوه أرضه، وأودعوا والده في السجن حتى واتاه الأجل.. قاطعها "كل هذا وتسمحين لنفسك أن تسأليني عن سبب وجودك هنا يا ساقطة؟ هل هذا شيء بسيط في نظرك!؟

نظرت إليه مباشرة وقالت: أنتم تبحثون عن زوجي، فما علاقتي أنا بالأمر؟

- ألم يخبرك جلال إنه كان ينوي قتل أحد رجالنا؟ لقد قتل المدعو ياسين ليلة البارحة.

- هذا غير صحيح، فزوجي رجل طيب، لم يفكر بالقتل أبداً، إنه يعيش من أجل نشر بذور السلام بين الناس..

- أنتِ تكذبين عليّ، أخبريني إذا كنتِ صادقة أين أجده الآن؟

- لا أعرف.

- ما زلت تكذبين..

- وكيف لي أن أعرف ومنذ مساء البارحة لم أره، ثم ما فائدة كلامي ما دمت لا تصدقني وتعتبرني كاذبة.

- أعلم إنك تعرفين، وإنك الشخص الوحيد الذي يعرف مكان جلال، لكنك تصرين على الكذب، كفاك بكاء وتكلمي.. إني مصغ إليكِ.. وأضاف في نبرة رقيقة: إذا قلت لي أين جلال، انظري إليّ، واسمعيني جيداً، إذا قلت لي أين يختبئ، سوف أفرج عنك، سوف أطلق سراحك ويمكنك الذهاب إلى بيتك مباشرة في سلام، فكري فيما أقوله لك وأجيبي بعد ذلك.

- صدقني، لا أعرف.

- حسناً، يظهر إن المعاملة الطيبة لا تجدي نفعاً معك، طالما أنت ماكرة إلى هذا الحد، سنجعلك تعترفين بوسائل أخرى..

- صدقني لا أعرف شيئاً.. "تضرعت قائلة"، وقبل أن تنتهي من جملتها، انفتح الباب على مصراعيه، وانبعث منه صراخ طفل، فمدت عنقها تبحث في كل الأنحاء من أين ينبعث ذلك الصراخ..

قال الضابط: إنه يبكي من الجوع منذ ساعات عدة، وسوف يموت جوعاً إذا لم تقولي لي عن مكان جلال.

اندفعت ياسمين نحو الباب، غير أن ثلاثة رجال وقفوا في وجهها، ولم يجدوا صعوبة في التغلب على مقاومتها، تهدل شعرها أثناء نضالها للحصول على رضيعها، وخرجت بلوزتها من تحت بنطالها.. عادت

تزحف على ركبتيها تتضرع إلى الضابط أن يتركها ترضع وليدها قائلة "بحق الله، دعني أرضعه، إن لم أرضعه سيموت، دعني أرضعه مرة واحدة وبعد ذلك اقتلني إن شئت".

- لن ينفعك إلا اعترافك أين يختبئ جلال، أما إصرارك فهذا ليس من صالحك، ستبقين هنا، وسيموت ابنك من الجوع ومن الصراخ.

ركعت كالمجنونة أمام الرجال الذين يحرسون الباب، ثم عادت وركعت أمام الضابط، تتوسل إليه كالحيوان الجريح، تعض شفتيها ولا تدري ماذا تفعل، والطفل يبكي، فقال الضابط: سنجعلك تأكلين براز طفلك، ونرى ما إذا كان ذلك سيذكرك أين يختبئ والده.

- سأفعل ما تطلبه مني، لكن اتركني أولاً أرضع طفلي، لا تكن ظالماً، فالرضيع لم يرتكب ذنباً، بإمكانك أن تعاقبني كما تشاء، لكن اتركني أولاً أرضع الطفل.

فجأة جذبها أحد الرجال بقسوة، بينما وجّه إليها آخر ركلة طرحتها أرضاً.. فلم تعد تحس بلكماتهم، كما لم تعد ترى أو تسمع شيئاً غير صراخ طفلها.. تأوهت وهي تتدحرج على أرضية الغرفة بين ركلات الحراس، وتضرعت بالرحمة لطفلها بعد أن فقدت الإحساس بكل آلامها.. غابت عن الوعي ورضيعها يبكي..

على صراخ طفلها، استيقظت ياسمين مع خيوط الفجر في زنزانتها، شاهدته ملقى بجانبها، بارداً كالثلج.. كان الحراس قد أعادوها إلى الزنزانة، وكان ثمة لعاب مخاطي يسيل من أنفها، وحليب ناصع البياض يسيل من ثدييها.. احتضنت طفلها بين ذراعيها وألقمته ثديها، انتعش الطفل شيئاً ما، لكنه عاد للصراخ، ولم تفلح بعد ذلك في إغرائه بالعودة إلى ثديها.. ضمته إلى صدرها، شهق وصمت فجأة، نظرت في عينيه وتحسست أنفاسه، تمنت لو يعود إلى رحمها، صرخت وأخذت تقرع الباب والطفل بين ذراعيها، "ابني يموت، آه، افتحوا الباب، ابني يموت، يا الله يا الله، ارحمني يا الله"..

فجأة هبّ جلال من نومه يصرخ "ابني حبيبي، يا الله، يا الله لا تتركه يموت".. وهبّت ياسمين من جانبه مذعورة، سألته عمّا أصابه!؟.. أخفى ما بسريرته وأسرع إلى ولديه، كان ما يزال مسافراً مع حلمه، التبس عليه الأمر بين الحلم والحقيقة، ضمهما بين ذراعيه وراح يهيل عليهما القبل، محاولاً نسيان حلمه الكابوس الذي هزم أحلامه مع فجر ذلك اليوم.

***

أقلق الواشي راحة جلال، وسلب من عينيه النوم.. لم ينم منذ أيام عدة، قرر بحسم أن يضع نهاية لهذا الكابوس مرة واحدة وإلى الأبد، كما

قرر ألا يخبر أحداً عما عزم عليه.. فتح درجاً صغيراً وأمسك المسدس بيده، عازماً على استخدامه، لم يشك لحظة في سلاحه، سبق وأن فكه ونظفه، وأعاد تركيبه أكثر من مرة، أما تلك الليلة فقد حشاه وجهزه للإطلاق.

انبلج الفجر في شحوب طفيف، توهج بشكل ليموني داكن، ثم برتقالي، ومع انفلاق الكون عن شعلة صفراء مائلة إلى الاحمرار، سطع نور الشمس رغم برودة الجو وتساقط مطر خفيف في الليل، وعادت الطبيعة تفرغ أنهاراً من الحيوات الجديدة إلى قشرتها.

أغلق الباب خلفه، استقل حافلة قادته إلى القدس الشرقية، ترجّل منها ومشى وحيداً في الشارع، استحالت مشيته إلى هرولة خفيفة، كأنما هو ذاهب ليبيع بضاعة انتهى تاريخ صلاحها، من بعيد ظهر له رجال بثياب برتقالية اللون كأنهم أشباح، ينظفون الشوارع والأرصفة، يحملون مقشاتهم الطويلة كأنها عصي سحرة، وجوه نحاسية وأحذية جلدية، يتضاحكون ويتحدثون، توقف أحدهم عند حائط جانبي، انحنى إلى الأمام، تمخط وعصر أنفه ما بين الإبهام والسبابة، وعاد ليلتقط بعض الأوراق الملقاة على الرصيف.

الهواء كان بارداً، وعلى أغصان الأشجار المبتلة بالمطر سمع زقزقة العصافير، لم يكن جلال يحلم هذه المرة، سبق وأن حلم بكوابيس كثيرة،

لكنه ما زال يعيش كابوس الرجل الذي وشى بوالده، حدد عمله الذي لا مفر منه، وراح ينتظر ساعة الصفر بفارغ الصبر.

تسارعت خطواته وهو يطوف في شوارع القدس، لا يدري لِمَ غادر البيت منذ الصباح، بينما ينوي تنفيذ مهمته عند المساء.. تساءل في قرار نفسه، وزفر بكلمات متقطعة، أحس بقلبه يخفق في اضطراب، يتقلص، وتفوته بعض الدقات، لدرجة أنه اضطر أن يضغط بيده على صدره، ويقبض عليه رغماً عن الضلوع التي تفصله عنه، أحس به كعضو منفصل كسير بإمكانه إرغامه على العمل.. سد أذنيه حتى لا يسمع تمتمات شفتيه، وغمغم ببعض عبارات الانتقام، ضربات قلبه تكاد تكتم أنفاسه، كان مخنوق العبارات مخطوف اللون.. شكر الله أنه اجتاز أحد الحواجز دون أن يوقفه أحد الجنود.. عاد يحث الخطى، مستغرقاً في التفكير، عبر شارع مزدحم بالناس، فرحين وسعداء، بينما تبدو عليه الكآبة بعيداً عن الفرح، شعر بخفقان قلبه من جديد واضطرابه، كادت ساقاه تخذلانه، مرت سيارة عسكرية بجانبه، غذّ السير عبر شارع عريض، لم يعد بإمكانه التراجع، نظر إلى الخلف وبصق.. هدفه ما زال بعيداً والوقت يقترب من الظهيرة، صرّ أسنانه وشد أزر ركبتيه، شعر أنهما متيبستان، وثمة جفاف في حلقه.. خفف من مشيته، بدا له أنه يسير على غير هدى، كشخص خائف لا يعرف ماذا يفعل، خُيّل له أن كل من في الشارع يعرف مهمته، يشير إليه ويتعقب قدميه، بيت من الزجاج

الشفاف مكشوف وعار أمام الجميع، مدّ يده إلى صدره لينتزع كمادات الخوف التي زرعتها فيه نتائج مهمته.. الانسلاخ عن أسرته، والدته، زوجه، وطنه، ذكرياته وألق النور في عيون أطفاله ومستقبلهم.. أشياء كثيرة دارت في كون ذاكرته، واستحالت إلى شذرات، كما استحالت أفكاره مزقاً.

أشاح بوجهه جانباً دون أن يخفف من خطاه، شعر أنه هُزم هزيمة معنوية، تخيل نفسه والكآبة تسيطر عليه، أنه يرتدي بنطال أبيه في سجنه المؤبد، وسترة ليست على مقاسه إطلاقاً.. صورة مختلفة تماماً قفزت من خزينة ذاكرته واخترقت رأسه، تخطت صورة الواشي كل الصور، وتربعت بين عينيه، صورة الرجل الذي ما زال على قيد الحياة، يعيش وسط أكاليل الغار رغم أنه مجلل بالعار، صورة بشعة لها رائحة كريهة، ويجب الخلاص منها.. كان يجب أن يموت قبل أبيه، ويدفن في مزابل التاريخ.. أما والده، "أضاف جلال في قرار نفسه"، ذلك الرجل الشجاع الذي قضى عمره أسيراً في سجون الاحتلال، مؤكداً أن قضية فلسطين لم تمت في عيون الشعب الفلسطيني والعربي، وأنَّ إرادة السجين أقوى من جبروت السجان.. فقد مات غريباً ولم يحضر جنازته غير الأقارب، كان بطلاً، ومع ذلك عاش دون امتيازات وبلا أوسمة، انتهى به الأمر ليكون سماداً لجذور زيتونة أخذت تعانق السماء.. بطل حقيقي عاش في الظل، وانتهت جنازته كأحد الفقراء المساكين.

قطع المؤذن حبل أفكار جلال معلناً موعد صلاة الظهر، صحا من حطام أفكاره، حوّل وجهة سيره واتجه نحو المسجد الأقصى لصلاة الظهر، توقف قرب باب العمود، المدخل الرئيسي للمسجد الأقصى وكنيسة القيامة وحائط البراق، أحس بجفاف حلقه وهو يرى جنوداً يحملون أسلحة رشاشة ويدققون في هويات المشاة.. أروى ظمأه من بائع السوس الذي يقف قرب الباب صيفاً وشتاء يروي العطاش، شعر بظلال غربة ثقيلة في وطنه، وفي قرار نفسه تساءل ما إذا كان جنودٌ آخرون يرصدون حركة المواطنين عند أبواب القدس الأخرى!.. أناس تلج باب العمود إلى مدينة القدس، وآخرون يخرجون منه يحملون ما لذ لهم وطاب من أسواقها العتيقة.. اجتاز جلال الباب، وجد نفسه في مفترق طرق، تقوده إلى أسواق تجارية، سوق باب خان الزيت، سوق العطارين، سوق اللحامين، سوق القطانين، سوق الصاغة وسوق الحصر، لا يعرف أين تقوده الطرق والأسواق، توقف، على يمينه الحي المسيحي المسمى حارة النصارى، وأمامه من الجهة اليسرى الحي الإسلامي، طرق ضيقة وحارات، حارة السعدية وحارة باب حطه.. تراءت له صور قديمة في ذاكرته، تسمر في مكانه يستمع من مذياع قريب لفيروز

" مريت بالشوارع، شوارع القدس العتيقة..
قدام الدكاكين، البقيت من فلسطين" ..

اتجه بلا تردد نحو نداءاته الداخلية التي كانت تسحبه بقوة، بعد أن شُلّت كل حركة فيه.. تذكر أنه رافق والدته ذات يوم أثناء طفولته إلى هذه الأماكن، لم يكن يعرف عنها شيئاً، لكنها مطبوعة في ذاكرته، تراءت له والدته تحمل طبقاً على رأسها، وتجتاز باب العامود بلا رقيب، الباب مفتوح على مصراعيه لكل الوافدين، في سوق قديم تفترش الأرض، وتفرش أمامها بسطة صغيرة، تبيع ما استطاعت التقاطه من حشائش وبقوليات الأرض بعد اعتقال والده، ثم تقوم لتصلي في المسجد الأقصى، تشعر براحة بعد تعب النهار قبل أن تعود إلى البيت.. يستعيد جلال ما علق بذاكرته وهو يتابع الصوت في أعماقه..

"عم صرّخ بالشوارع، شوارع القدس العتيقة..
يا صوتي ضلك طاير، زوبع بهالضماير..
خبّرهن عللي صاير، بلكي بيوعى الضمير"..

يدور بناظريه، تتلألأ أمام عينيه قبة الصخرة المذهّبة، يخف الخطى ويتجه نحو المسجد الأقصى، يقف في طابور المصلين، ويصلي صلاة الظهر، يغادر المصلون المسجد، قليل من تبقى في باحة المسجد، ينظر إلى ساعته، الوقت ما زال مبكراً، يغادر المسجد، يستقل حافلة ويعود إلى بيته في مخيم قلنديا.. يتوقف قرب شجرة الزيتون قبل أن يدخل بيته، ينظر إلى جدثي أبيه وجده، يشعر بفخر أنه ما زال عاقد العزم على تنفيذ وصية والده، يترحم على والده وجده ويتمشى نحو بيته، يتجنب النظر

في عيني زوجته، يلج غرفته ويغلق الباب بالمزلاج.. ينظر إلى ساعته من جديد، عقاربها تقترب من الثالثة بعد الظهر، يتأفف ويستعجل الوقت، لم يعد يطيق الصبر، عليه أن ينهي مهمته، يشعر بالدقائق تزحف بتكاسل، والزمن يتوقف، تدور الكاميرا في رأسه من جديد، تتشتت أفكاره، يسترخي على الأريكة ويتابع التلفاز.. محطة الجزيرة الفضائية تبث الأخبار وتنقل الأحداث مباشرة.. المحكمة الدولية تدين عناصر من حزب الله في اغتيال رئيس وزراء لبنان رفيق الحريري، حزب الله يشجب ويرفض إدانة أحد من عناصره.. عقوبات جديدة على إيران بسبب برنامجها النووي.. يلتقط "الريموت" ويقلب محطات التلفاز في محاولة لقتل الوقت.. ثمة محطة فضائية تبث مسلسلاً تركياً، يؤكد لنفسه أن المسلسلات مضيعة للوقت أو كذبة جميلة، تجعل من الوهم حقيقة لثوان أو دقائق، أو لساعات، إنها ليست مقياساً لهذا الزمن المتحول، لكنها مضيعة للوقت.. محطة فضائية أخرى تبث برنامجاً وثائقيا، تدور أحداثه عن النكبة وهجرة الفلسطينيين إلى البلاد العربية، يُلقي بالريموت جانباً ويتابع مشاهد الحلقة، ثمة مؤامرة صهيونية حيكت بإحكام ضد أصحاب الأرض الشرعيين لطردهم وإحلال أناس غرباء بدلاً منهم.. تتابع عيناه التلفاز ويفكر في المؤامرات التي تحاك ضد العالمين العربي والإسلامي.. يرهقه التفكير فيغمض عينيه، يستسلم لقيلولة نوم وهو يتابع مشاهد المؤامرة.. فجأة تتغير المشاهد، يتراءى له

قبر والده من وسط شاشة التلفاز يهتز وينفتح، يظهر له والده بثوب أبيض يقف أمامه، صورة والده تبدو بلون باهت، كأنه يطل من خلف زجاج برونزي شفاف.. ينهض جلال جالساً وعيناه مفتوحتان على وسعهما، مضطرباً وعصبياً، برزت شرايين ذراعيه ورجليه كأوتار قوس، وبدت حبات من العرق ترشح على جبينه، يقول والده "ما بك يا ولدي، أحس أنك تخفي شيئاً في صدرك يقلق راحتك"..

يفغر جلال فاه، يحاول أن يتكلم، ينعقد لسانه، ولم يساعده على النطق، ينكتم الصوت في حنجرته، يضيف والده "أعرف يا ولدي كل شيء عنك، لا تستغرب، فأنا لم أمت، جسدي فقط هو الذي غاب عن هذه الأرض، أما روحى فهى طائر يحلق في السماء، أرى وأسمع مثلك تماماً، وأعرف بماذا تفكر أيضاً.. أعرف أنك تصر على محاكمة أعدائك بنفسك، أنا سامحتهم يا ولدي، فلماذا تحاكمهم!؟ اعف عنهم، أطعمهم واسقهم إذا استطعت، واتركهم لعقاب ضمائرهم.. نحن لسنا قتلة يا ولدي، نحن أبناء السلام.. السلام له وقت واحد يجب أن لا نضيعه، أما الحروب فلها أوقات تأكل فيها الأخضر واليابس.. هدفنا ليس الانتقام من الأعداء، هدفنا تحرير الأرض، وإقامة دولتنا الفلسطينية على ترابنا الفلسطينى.. ومهما كان الليل طويلاً، فلا بد أن تُشرق الشمس من جديد، وتعود البلاد إلى أهلها.. أصل البلاء هو المحتل الذي اغتصب أرضنا سيدة الأحلام، أما الخونة فهم أذناب، طحالب.. عليك

برأس الحية، عندئذٍ تموت الأطراف.. ولتعلم يا جلال أنَّ كل خطوة يخطوها الإنسان، تشكل جزءاً من تاريخه، نمضى مثقلين دائماً برغباتنا، أفكارنا وأعمالنا.. كل ما يقوم به المرء يعود إليه، عاجلاً أو آجلاً سوف يدفع ثمن الشر، ويكافأ على الخير.. بالحكمة يسود السلام، وبالمعرفة يمكن أن يُهزم الشر في العالم".

تتحرك شفتا جلال ويحاول النطق ثانية.. تتسع حدقتا عينيه ويحس بانحباس موجاته الصوتية، ينعقل لسانه ثانية ويشعر بالخرس، يضيف والده "لا تتعب نفسك يا ولدي بالإجابة، فأنا أعرف ما ترغب في قوله، ترغب في القول بأن حياة المواطن مقدسة، وأنّ هؤلاء العملاء القتلة يجب أن ينالوا جزاءهم في الدنيا، قبل أن ينالوا عقابهم في الآخرة، وتطالب بإنزال العقوبة القصوى بهم والإعدام، متمثلاً بقول الله تعالى "ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب".. فهم أثاروا الفتنة بين أبناء الشعب الواحد، وأساءوا لديننا الحنيف، ومع أني أؤيدك في رغبتك، إلا أني أخالفك الرأي في تنفيذ العقاب، فلا يحق لكل من ظُلم أن يحاكم من ظلمه بنفسه، ويأخذ حقه بقوة ذراعيه.. قتْلك للواشى لن يعيد لى الروح، بل ربما يجر عليك عبئاً ثقيلاً أنت بغنى عنه.. لا يمكن أن تكون قاضياً وجلاداً في نفس الوقت.. الله هو الحكَم يا ولدي، والسلطة الحاكمة في الأرض هي الوحيدة التي يحق لها تنفيذ العقاب، بعد محاكمة الشرير محاكمة عادلة.. ولو كان الأمر كما ترغب، لفسدت الأرض

وفسد مَن عليها مِن عباد.. بطريقتك التى ترغب يا ولدي يسود القوي على الضعيف، تختفى حضارة الإنسان، وتعود البشرية إلى عصر الغاب".

يختفى الصوت وتتراجع صورة ناجي إلى خلفية الشاشة، تحتجب صورته وتختفي ظلاله قبل أن ينسحب من المشهد ويختفي تماماً، يعود ويتمدد في حفرته الباردة بخفة ورشاقة، وعلى الرغم من نداءات جلال المتتالية وراءه بصوت مبحوح، إلا أن والده لم يلتفت نحوه.. يهبّ جلال من قيلولته مذعوراً يصرخ، يدور بناظريه في أرجاء الغرفة، الهواء يتلاعب في الستائر، والنافذة مفتوحة، يتحرك نحو النافذة ويحدق في الفضاء، رياح عاصفة ومطر غزير يتساقط، لا أثر لأبيه، يعود وينظر إلى ساعته، تقترب من السادسة مساء، يترحّم على روح والده ويقرأ سورة الفاتحة.. وعبر أفكاره المشوّشة يستعيد ما علق بذاكرته.

لم يتذكر سوى أحداث المسلسل، وبعض الكلمات مما قاله والده، يشعر أن وصية والده ثقيلة، بينما خياراته ضيقة، صفر، "أضغاث أحلام"، يقول في سريرة نفسه، ويتذكر مهمته، يسرع إلى خزانة ملابسه، يستبدل ثيابه ويخبئ مسدسه تحت إبطه، يلبس حذاءه، وفي السابعة ينطلق نحو بيت الواشي في القدس الغربية.. "لا بد من قطع رأس الحية والخلاص من هذا الكابوس للأبد"، يحدث نفسه، كان على ثقة أنه لن يخطئ هدفه هذه المرة، صحيح أنه تشويه للذات ويبلغ حدّ السادية،

لكنه لن يصرخ أمام منظر الدم، ليست جريمة، ولن يلوم نفسه عليها.. سبق وأن رأى الجرائم والمذابح التي اقترفها الجنود الصهاينة في حق شعبه، "يضيف في سريرته"، إنهم بلا ضمائر، مشوّهون، وعليه أن يرد الصاع صاعين، عليه أن يقتلع مسبب الأذى من جذوره، تلك هي الحياة في مسارها الطبيعي.

في ركن آمن من بناية يجري بناؤها في القدس الغربية توقف، أخذ يتفحص الشارع باهتمام، السماء معتكرة والمطر ينهمر، عبرت عربة شرطة وسارت بتمهل من أمامه، جلس فيها شرطيان شابان، أخذا يتفحصان المكان والمشاة بتمعن، شعر بالقليل من الخوف أمام العملية المقدم عليها، تراءت له صورته في صحف اليوم التالي، وأحس بنتائج عمله والشرطة تقوده إلى السجن، تساءل في أعماقه، هل سيكون لزاماً عليه في وقت ما أن يقف في المحكمة! وهل سيقدرون على تحديد هويته بدقة بعد تنفيذ مهمته؟ وهل سيضعون القيود والأصفاد في يديه وقدميه!؟

شعر أنه يستسلم لأفكار غريبة.. تمرّد على ما جال بفكره، وغادر المكان ليهدئ أعصابه عبر تحكمه في خطواته الحثيثة، باحثاً عن لحظة هدوء، سأل نفسه بانزعاج ماذا تفعل هنا، ولأي سبب جئت! تردد صدى كلماته التي لم ينطقها مع وقع أقدامه، لا يدري ماذا حدث له، لكنه تخيل في لحظة من اللحظات أنه ينفّذ وصية والده العالقة في حلقه

وصدره، والتي لم يجد والده وقتاً كافياً لتحقيقها، صرّ على أسنانه وحدّث نفسه "لن أتراجع وليحدث ما يحدث".

نظر إلى ساعة يده، أشارت عقاربها الفوسفورية إلى التاسعة وخمس دقائق مساء.. فكرة الانتقام كانت متجذرة في رأسه، عليه تنفيذ مهمته والخلاص من غريمه.. "تطهير الوطن من العملاء جزء لا يتجزأ من تحرير الأرض وطرد المحتل.. خطان متوازيان في بناء الدولة"، حدث نفسه بذلك واتجه نحو بيت غريمه مباشرة، تسلل إلى باب خلفي ووقف، النور يشع في الطابق الأرضي، تحسس بيده كعب مسدسه ونظر من خلف زجاج النافذة، الخادمة مشغولة بفتح وإغلاق الخزائن والأدراج، فجأة سطع نور واتجهت الخادمة نحو الباب، تراجع ووقف منكمشاً في ظلال شجرة غطت أوراقها السور الخارجي، ضيّق عينيه بسبب الضوء وراح يرقب المكان، ظهرت الخادمة تحمل صينية عليها فناجين قهوة واتجهت نحو حديقة البيت، ثمة ثلاث نساء يتربعن على مقاعد وسط الحديقة، أسرع إلى داخل البيت دون أن تلحظه الخادمة، وجد نفسه في المطبخ، أسرع إلى الطابق العلوي والمسدس في يده، كان ثمة شخص ضئيل أصفر الوجه، ذو جسد نحيف ممددٌ على السرير، ضامٌ ذراعيه إلى صدره، أيقظه جلال بحركة من يده ونظر إلى وجهه مباشرة، ظلال صفراء كالحة اللون كانت تسود المكان.. قال "هل تذكرني، أنا ابن ناجي الصوباني".. فتح ياسين عينيه ولم يبد أي مقاومة،

تغير لونه نحو الاصفرار الباهت، ولم ينطق بكلمة، بدت علامات الفزع تملأ وجهه.. فجأة ارتجف جلال وسرت قشعريرة في جسده، قوة خفية ضغطت على يده ومنعته من إطلاق النار، تقلصت عضلات وجهه وتصلبت يده، وقف متحجراً ولم يستطع أن يضغط على زناد المسدس.. نظر إلى مسدسه، أفرغه من حبات الرصاص وألقاها على السرير، ألقى بالمسدس على أرضية الغرفة، ثم اتجه نحو الباب، وغادر المكان.

***

الرواية لم تنته بعد..

ذات ليلة، وبعد أن انتهى الراوي من كتابة هذه الرواية، ظهر له بطل روايته "جلال" يرتدي روب المحاماة، اقتحم خلوته قبل خيوط الفجر وبزغ أمامه كالمارد، وبلا مقدمات قال "في الرواية أظهرتني جباناً لا أستطيع الضغط على زناد المسدس، مع أني أستطيع أن أحمل رشاشاً وأواجه المحتل".. تفاجأ به الراوي في مكتبه المتواضع، وضع القلم من يده ونظر إليه مندهشاً، أضاف جلال "لا تقاطعني، دعني أكمل، تعلمتُ من والدتي أن لا أرد الشر بالشر، كما تعلمتُ من والدي الصبر على المصاعب".. قاطعه الراوي: وهذا ما دفعني لأكتب أن الخير في أهل الخير، وأن أصل البلاء هو المحتل.

قال: ياسين كان عميلاً ويستحق الموت، لكن المحتل يريدها ثورة مسلحة، ويريد من أبناء فلسطين حمْل السلاح، حتى يظهروا أمام العالم أنهم إرهابيون، لا يستحقون دولة، متناسين ومتجاهلين أن مقاومة الاحتلال مشروعة بكل السبل، ولا علاقة لها بالإرهاب، لكن الشعب الفلسطيني بوحدته وتكافله، بدفاعه عن أرضه ووطنه وقدسه بكل السبل المتاحة، بثورته السلمية وصموده أمام الجنود المدججين بالأسلحة سينتصر، إنهم يتيهون على أرضنا بقلوب ضعيفة، جبناء، جنود من ملح، ننتصر عليهم بالحجر وصمود الأسرى..

أضاف بعد لحظة صمت "هؤلاء المارون بين الكلمات العابرة، المحتلون، يعلمون يقيناً أن الفلسطيني لا يبادل أرضه بأرض، ولا

يستعيض عن وطنه بوطن، كما لا يرضى بغير فلسطين وطناً وجنسية، مهما كانت المغريات وكبرت الحوافز، ستبقى فلسطين عند الفلسطينيين هى القلب، الوطن، الحلم والأمل، وهى الجنسية والهوية، فيها خُلقوا، وعلى أرضها يعيشون، في ترابها يُدفنون، ومنها يُبعثون"..

قاطعه الراوي "خطاب رائع، وكل فلسطينى يحفظه عن ظهر قلب".. صمت ثانية، تناول كأس الماء من أمام الراوي، شرب جرعة وأضاف: لنعد إلى الواشى، فأنت لم تتعرض لحياته، ولم تكتب ما حدث له..

أجاب الراوي: كان هدفي تأكيد حق العودة وفضح الممارسات الإسرائيلية بحق الشعب الفلسطينى، أما الواشى فكان مجرد حجر عثرة أو نبتة شوكية في طريق تحرير الأرض، ولا يهمنى أمره..

– كيف لا يهمك! إنه جزء لا يتجزأ من قوات الاحتلال، وعليك أن تضيف في روايتك ما حدث لى معه بالضبط.

– أنا لا أعرف ما حدث، دعنى أسمع منك.

استراح جلال على مقعد أمام الراوي وقال: فكرة الانتقام كانت مشرّشة في رأسى، وصية والدي كانت ثقيلة، وكان علىّ تنفيذ المهمة حتى يستريح والدي في قبره، توجهت إلى بيت الواشى مباشرة، تسللت من باب خلفى واختبأت تحت شجرة، كان الظلام يسود الطابق الأرضي، تحسست بيدي كعب المسدس وحاولتُ أن أفتح الباب، فجأة

انفتح الباب وظهرت الخادمة أمامى، قالت المكان آمن، لا أحد غيري في المطبخ، ادخل.. لم أصدق ما أسمع ولم أتحرك من مكاني، تابعتُ حركاتها بحذر، ودارت عيناي في أرجاء المطبخ، أعادت قولها "لا تخش شيئاً تفضل بالجلوس".. سحبتُ أحد الكراسى وجلستُ على حافته مرتبكاً، قالت: بمقدوري مهاتفة الشرطة، والتبليغ عن لص يقتحم المنزل، أو قاتل يرغب الغدر بسيد البيت، لكنى لا أرغب بذلك، فقد راقبتك منذ البارحة وأنت تدور حول البيت، وعرفتك، ولا زلت أذكر زيارتك الأولى للبيت.

عيناها كانتا تحدقان في وجهي وهي تتحدث، أضافت.. ياسين ينام في الطابق العلوي، ومن الصواب أن تثق بي وتكون عاقلاً، أعرف أنك تحمل سلاحاً، وأعرف ما تنوي فعله، فأنا لست خادمة فقط في هذا المنزل، أنا ضمن خلية سرية تساعد المقاتلين في التسلل والوصول إلى أهدافهم، ثم تساعدهم في التشتت والاختفاء عن أنظار حرس الحدود، ثق بي وانصرف قبل أن يحدث لك مكروه، فياسين نال جزاءه، ولم يعد للانتقام منه فائدة.

قلت لها: لكنه لم يرحم شباب أبي، ولم يرحم أمي..

قاطعتني: أنت لا تعرف شيئاً عنه، أنا التي أقيم في هذا البيت منذ أكثر من عشرة أعوام، وأعرف عن ياسين كل شيء.. ما زلت أذكر زيارتك الأولى، وأذكر ما تجادلتما بسببه تلك الليلة.. ارتبك ياسين بعد

رحيلك تلك الليلة، وظل لساعات طويلة صامتاً متسمّراً في مقعده، شككتُ في أقواله، وأحببتُ أن أتأكد من صحتها، ادعيتُ حرصي على صحته، خاصة أنه كان على خلاف مع زوجه وابنه الوحيد، ونمتُ في غرفة مجاورة لغرفة نومه.. بعد منتصف الليل فتح باب غرفتي ونظر إليّ، تظاهرتُ بالنوم، أسرع إلى خزانته الحديدية، راقبته من ثقب مفتاح باب غرفتي وهو يفتحها، تناول بعض الأوراق وتصفحها، ثم انتقى ملفاً أصفر اللون ووضعه جانباً.. فجأة دخل ولده غرفته، ارتبك ياسين وحاول أن يخفي الملف عن ناظري ولده، أدرك ولده أن في الأمر سراً.. سأله عما يحاول إخفاءه، وما إذا كان يحتوي الملف على أرقام حساباته البنكية وأسرار حياته؟.. غضب ياسين وأجابه أن يغرب عن وجهه، وأن لا أسرار في حياته يخفيها عن أحد.. تظاهر ولده بصدق والده وخرج من الغرفة، وعند الفجر، تسلل إلى خزانة والده، فتحها بطريقته الخاصة، تصفّح بعض الأوراق، ثم تناول الملف الأصفر، وخرج من الغرفة.

في الصباح سمعته يصرخ ويقول: هذا أبي مثال الشرف، يعطيني دروساً في الأخلاق وهو أبعد الناس عنها.. اندفع والده نحوه، حاول أن يأخذ الملف من بين يديه عنوة، لكنه لم يستطع، دفعه ابنه فوقع على الأرض.. وراح ولده يبعثر الأوراق ويلقي بها على الأرض، ويصرخ في وجه أبيه..

تشاغلتُ بترتيب السرير، وجمعتُ الأوراق عن أرضية الغرفة، ألقيتُ نظرة على بعض الصفحات، أوراق صفراء، تاريخها يعود لفترة الستينات من القرن الماضى، كان هناك عدة أسماء عليها إشارات حمراء وصفراء.. من بينها ظهر اسم ناجى الصوباني بالخط العريض.. انقض ياسين على الأوراق وخطفها من بين يديّ، ثم أشعل عود ثقاب وراح يحرقها ورقة بعد الأخرى.. خطفتُ بعضها من بين يديه وأخفيتها تحت حافة السرير، اشتعلت النار فجأة في السجادة التى يقف عليها، صرختُ عليه أن يبتعد عن النار، وحاولت إطفاءها، لكنه صرخ ليحترق البيت على من فيه.. وكان يعنى قوله، لولا أن حمله ولده بين يديه وأخرجه بالقوة من الغرفة، وأطفأ النار.

في الأيام التالية، وشيئاً فشيئاً راحت تتجلى تفاصيل مذكرات ياسين لولده التي لم يدركها من قبل، نقم على والده، وقال إنه لن يغفر له أن جاء به إلى هذا العالم، وتمنى لو مات في عمر مبكّر حتى لا يرى خيانة أبيه، ولكي يتحدى والده ارتكب مجموعة من الأعمال الوحشية، متقصداً أن يعلم بها والده ويُحرجه، وهكذا قضى عامه الأخير في كراهية لوالده بعدما عرف ما فعل أيام شبابه، ووشايته على أبناء جلدته، ومع أنه أنهى تعليمه وحصل على شهادة جامعية، وكسب أصدقاء ومعارف كثر، إلا أنه ترك وظيفته ولم يرغب في العمل ثانية، وراح يبتز أباه ويبدّد ثروته، إلى أن وجد ضالته في العمل مع أبناء وطنه، ومع أنه عرف

طريقه، وشعر براحة نفسية، إلا أنه كان يخفي هذه الفضائل عن أبيه، ويتصرف كابن عاق فظ فقط ليثيره، وبينما يزمجر ياسين ويقول إنه لا يريد أن يرى ولده في البيت، كانت الأم تحميه حتى لو أدى ذلك لمواجهة مع زوجها، وبعد أن ماتت والدته قبل أقل من عام إثر حادث اصطدام سيارتها، قرر ابنها ألا يتزوج، وألا ينجب أولاداً كي يقضي على سلالة العائلة، التي جلبت له العار.

أما ياسين، فمنذ أن سمع بخبر مقتل ابنه قبل أشهر عديدة مع اثنين من رفاقه، في مدينة رام الله، بعد أن طعن أحد الجنود بمدية قرب باب العامود وقتله.. أصيب بشلل نصفي أقعده على كرسي متحرك.. ومنذ ذلك اليوم وهو يهذي، ينسى ما قال أو سمع، يسترجع ماضيه وينسى حاضره.. يقول بصريح العبارة أنه فشل في حياته، كان يبحث عن المال، ونسي الشرف، روحه تعفنت مع مرور الأيام، وبدا كرصيف متآكل، انتقم الله منه بأن أخذ زوجه وولده الوحيد، انقطعت جذوره، محطة خاوية وكئيبة.. وبعد موت ابنه عامله الإسرائيليون مثل كومة من القمامة.

إنه الآن وبعد أن تجاوز السبعين من عمره، "أضافت الخادمة"، بدأ يقرأ قدره مثل خارطة مليئة بالأخطاء، ولم يعد عنده أية شفقة على نفسه.. يعتقد وهو ينظر إلى الخلف ويستخلص حساب جهوده، أنّها كانت أسوأ مرحلة في حياته، لأن شيئاً جوهرياً التوى في روحه..

زملاء، أصدقاء وناس كثيرون خانهم وخانوه، لكن ما من خيانة آلمته، على حد قوله، مثل خيانته لوطنه.. صار يتمنى الموت، ويقول إنه أهون بكثير من الاستمرار في الحياة.

ومع أني شعرتُ بصدق أقوال الخادمة، "قال جلال"، إلا أني أخبرتها بأني لست مجبراً على تصديق ما قالت، ولا بد أن ينال الخائن عقابه، قاطعتني بأن الله يُمهل ولا يُهمل، وإن الخائن نال عقابه من أفعاله.. أكدتُ لها أني لست قاتلاً، لكن ياسين قتلني وقتل أبي وأمي ألف مرة، ولن أخرج من البيت قبل أن أراه، وأتأكد من صدق أقوالها.

قالت: بعد رحيلك تلك الليلة بأيام قليلة، أوصلت الأوراق التي خبأتها عن عيني ياسين إلى الخلية التي أنتمي إليها، وتأكدوا من صدق أقوالك، ولو كان فيه بقية حياة لقتله رجال المقاومة منذ أن عرفوا حكايته، ومع ذلك لا بأس أن ترى حالته، قم واتبعني إلى الطابق العلوي.

سبقتني الخادمة، أغلقتْ النوافذ بالمزلاج ووقفت قرب الباب.. كان ثمة شخص ضئيل أصفر الوجه، ذو جسد نحيف ممددٌ على السرير فاتحٌ ذراعيه.. استولى الصمت على البيت، فجأة وقفتُ متسمراً جانب السرير، تقلصت عضلات وجهي وتصلبت يداي، ارتجفتُ وسرت قشعريرة في جسدي.. تذكرتُ ما قالته والدتي بأن لا أرد الشر بالشر،

كما تذكرتُ ما قاله والدي أثناء قيلولتي، وعرفتُ معنى كلماته أثناء زيارتي الأخيرة له في السجن.. فرغم العذاب الذي كان يعيشه في سجنه، إلا أنه لم يتكلم عن آلامه وعذابه، بل قصر الكلام عن شوقه إلى معانقة أفراد عائلته في بلد يسوده السلام، ورغبته في مأوى يلتئم فيه شمل الأسرة بعد تحرير الأرض وإقامة الدولة الفلسطينية.. فتح ياسين عينيه تلك اللحظة ولم يبد أية مقاومة، بدت علامات من الخوف تملأ وجهه.. كنت أصوّب المسدس بين عينيه، لكن قوة خفية ضغطت على يدي ومنعتني من إطلاق النار، قرأتُ خوفه في عينيه مثلما قرأ ترددي على ملامح وجهي، تغير لونه نحو الاصفرار الباهت، ولم ينطق بكلمة.. أحسستُ أنه لا يساوي ثمن رصاصة، بصقتُ عليه وغادرت البيت.

***

انتهت الرواية ولم تنته قضية أبناء فلسطين مع المحتلين الغرباء.

* صدر للمؤلف

- **الروايات:**

١. جذور في طريق التحرير – دار الزهراء، بيروت عام ١٩٧٤م.
٢. الهذيان – دار الزهراء، بيروت عام ١٩٧٥م .
٣. الصمت المعبر – دار عمار، عمان ١٩٩٢م.
٤. ما زال للصبار روحا – دار النهضة، عمان ١٩٩٣م.
٥. الخريف واغتيال أحلام – دار النهضة، عمان ١٩٩٦م .
٦. الأرض الحافيـة – دار الينابيع، عمان ١٩٩٩م .
٧. نوافذ الغضب – دار الحرية، عمان ٢٠٠١م .
٨. ظمأ السنابل – دار اليازوري، عمان ٢٠٠٧م .
٩. أحلام يوسف – دار فضاءات، عمان ٢٠١١م.

- **مجموعات قصصية :**

١. القربان – دار عمار، عمان ١٩٩٠م
٢. فرسان السراب – دار أمواج، عمان ٢٠١٠م

- **تاريخ :**

١. صـوبـا، إحدى قرى فلسطين المدمرة عام ١٩٤٨م في منطقة القدس – تاريخ وطن وحياة قرية – عمان ١٩٩٦م .

العنوان الإلكتروني faqeh46@hotmail.com

موقع صوبا www.subaa.com